الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٩٢ - ٨ ابريل سنة ١٩٣٥ - السنة الثالثة

3^me Année, No. 92.

Lundi-8-4-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire

Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولي رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

ص	
٦٠	في مصر والسودان
٨٠	في الأقطار العربية
١٠٠	في سائر الممالك الأخرى
١٢٠	في العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العــدد ٩٢ « القاهرة في يوم الاثنين ٥ محرم سنة ١٣٥٤ — ٨ ابريل سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

على ذكر كتاب...

في مصر من الباشوات المثقفين فئة كثيرة ، تميزوا عن الأشباه لأنهم مهروا في أداء العمل ، أو وقعوا في طريق الفرص ، أو رقوا في معارج السياسة ؛ ثم تهيأت لهم بالمدارسة والممارسة أسباب العلم والخبرة ، فخبروا أسرار الأمور ، وسبروا أغوار المشاكل ، وصرّفوا شؤون الدولة على نحو من الحكرة المفروضة ؛ فهم لايبرحون ضاربين في الميدان الحكومي فرقه فرقةً ، يتقاذفون الادارة ، ويتنازعون الوزارة ، ويتداولون الأمر ، حتى أسرفوا على خير الأمة ، وافتاتوا على رأي الجماعة ، فقصروا كفايتهم على الخصومة ، وحددوا غايتهم بالحكومة ؛ فهم إذا وثبوا إلى الحكم استفرغوا الوسع في البقاء فيه ، وإذا انقلبوا عنه استنفدوا الوسائل في الرجوع إليه ؛ أما تسجيل التجربة بالتأليف ، ونشر المعرفة بالصحافة ، وتأييد العدالة بالمحاماة ، فعملٌ لا يدخل في حساب الجهد ، ولا يخطر في مراسم النية ! كأن العودة إلى ملابسة الشعب ، ومداخلة العامة ، ومزاولة الحرفة ، أصبحت لا تتفق مع نباهة الاسم ولا تتسق مع جلالة اللقب ، ولاتجري على تقاليد المنصب !

فى البلاد التى نطيل إليها النظر ، ونزعم لها الكمال ، ونحصر فيها القدوة ، نجد رئيس الحكومة إذا تعطل من الحكم ، ورئيس الجمهورية إذا انتهى من الرياسة ، عاد كل منهما إلى الموضع الذى صعد منه إلى الديوان ، أو انتخب فيه إلى القصر ، فيستأنف الجهاد اليومى فى سبيل الأسرة والأمة والحكومة بنشاط البادئ ، ونفسية التابع ، ورجاء الطَّموح ، فهو يدور مع الطبيعة دورة العام : يبدأ لينتهى ، وينتهى ليبدأ ؛ وفى كل طور من أطواره المتعاقبة تراه يندمج فى البيئة ، ويأتلف مع النظام ، ويرمى عن الواجب ، فينشر المذكرات ، ويحرر المقالات ، ويحضّر المرافعات ، ويكابد فى خلال ذلك طمع الناشر وعنت الناقد ومنافسة الحرفة ؛ ولكنه على الرغم من رهق الحياة الحافلة ، وكلال السن العالية ، يؤدى إلى وطنه المنعم زكاة النبوغ وضريبة المجد عملا لا يتأبَّهُ ، وإحساناً لا يَمُنُّ ، واخلاصاً لا يمين

* * *

ذلك هناك والكفاية موفورة ، والمحجة واضحة ، والأمر متّسق . أما هنا ورجالات الرأى قلال ، وتبعات العمل ثقال ، وميادين الجهاد عُزْل ، ترى النابه منا متى بلغ الوزارة من أى طريق وفى أى سن ، ختم حياته العاملة ، فاختزل الماضى ، واعتزل الشعب ، وازدرى العمل ، وغفا على رخاء معاشه . فهو وزير ما دامت وزارته ، فاذا سقط انقلب إلى مداره العالى يُزَجِّى فراغه المملول بالتردد بين أبهاء المستوزرين ونادى الحزب أو نادى (محمد على) يتشمم الريح ، ويتسقط الأخبار ، ويتربص بالحكومة الدوائر

هو وزير أو منتظر ؛ فما لك تكلفه أن يكتب فى صحيفة حزبه ، أو يساهم بالجد فى نهضة شعبه ؟ تلك أكلاف العيش لمن لم يدرك الثروة ، وأزواد الطريق لمن لم يبلغ الغاية ؛ والوزارة غاية الأمل فى الثراء والعظمة ، فاذا أدركها لا يسعه بعدها كرسى فى مكتب ، ولا يَجْزيه سهم فى شركة ؛ والظفر بها ولو مرة حق مكتسب يسلكه فى سلسلة المتعاطين حرفة الحكم ، فيضع نفسه ولقبه فى صندوق ذهبى ، ثم يعلقه فى خيوط المُنى ، ثم يدع النسيم يهدهده بين باب القصر ونافذة المندوب حتى اذا عصفت بالوزارة أزمة ، أو شغر فى مجلسها محل رفع برأسه الغطاء العسجدى وقال :

أنا أَشْرَئِبُّ ! إذن أنا موجود !

* * *

على أن القاعدة العنيدة أخذت تحمل فى طواياها بعض الشواذ ، فقد رضى الوزير والسفير حافظ عفيفى باشا أن ينزل إلى صفوف الباحثين والمؤلفين فأصدر كتابه القيم « الانجليز فى بلادهم » عن استقراء دقيق واطلاع شامل ، فكان تعريضاً أليماً بذلك الذكاء العاطل الذى يستفيد ولا يفيد ، وذلك النبوغ الفاجر الذى يدخل الحكم ليعسف ويخرج منه ليكيد !

احمد حسن الزيات

اليمامتان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

جاء فى تاريخ الواقدى «أن (المقوقس) عظيمَ القِبطِ فى مصر زوّج بنتَه (أرمانوسة) من (قسطنطين بن هِرَقْل) وجهّزها بأموالها وحَشَمِها لتسير إليه، حتى يبنىَ عليها فى مدينة قيسارية «سورية»؛ فخرجت إلى بلبيس وأقامتْ بها. . وجاء عَمْرُو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حصاراً شديداً وقاتلَ مَن بها، وقتل منهم زُهاءَ ألفِ فارس، وانهزم مَن بقى إلى المقوقس، وأُخِذت أرمانوسةُ وجميعُ مالها، وأُخِذ كلُّ ما كان للقبط فى بلبيس. فأحبَّ عمرُو ملاطفةَ المقوقس، فسيّر اليه ابنتَه مكرَّمةً فى جميع مالها، (مع قيس بن أبى العاص السهمى)؛ فسُرَّ بقدومها . . .»

***

هذا ما أثبتَه الواقدى فى روايتِه، ولم يكن مَعْنياً إلا بأخبار المغازى والفتوح، فكان يقتصر عليها فى الرواية؛ أما ما أغفلَه فهو ما نَقُصُّه نحن:

كانت لأرمانوسةَ وصيفةٌ مولَّدةٌ تُسمَّى (مارية)، ذاتُ جمالٍ يونانىٍّ أتمَّه مصرُ ومَسَحَتْه بسحرها، فزاد جمالُها على أن يكون مصريّا، ونَقَصَ الجمالُ اليونانىّ أن يكُونَه. ولمصر طبيعةٌ خاصة فى الحُسن؛ فهى قد تُهمِل شيئاً فى جمال نسائها أو تشعِّث منه، وقد لا توفّيه جُهدَ محاسنها الرائعة؛ ولكن متى نشأ فيها جمال يَنزِع إلى أصلٍ أجنبى، أفرغت فيه سحرَها إفراغاً، وأبتْ إلا أن تكون الغالبةَ عليه، وجعلتْه آيتَها فى المقابلة بينه فى طابَعِه المصرىّ، وبين أصله فى طبيعة أرضه كائنةً ما كانت؛ تغارُ على سحرها أن يكون إلا الأعلى

وكانت ماريةُ هذه مسيحيةً قويةَ الدِّين والعقل، اتخذها المقوقسُ كنيسةً حيّةً لابنته، وهو كان والياً وبَطْرَكاً على مصر من قِبَلِ هرقل؛ وكان من عجائب صنع الله أن الفتح الإسلامى جاء فى عهده، فجعل اللهُ قلبَ هذا الرجل مفتاحَ القُفل القبطىّ، فلم تكن أبوابُهم تدافع إلا بمقدار ما تُدفَع، تقاتل شيئاً من قتالٍ غيرِ كبير، أما الأبوابُ الروميّة فبقيتْ مستَغلِقةً حصينةً لا تُذعِن إلا للتحطيم؛ ووراءها نحو مائة ألفِ رومىٍّ يقاتلون المعجزةَ الاسلاميّةَ التى جاءتهم من بلاد العرب أوّلَ ما جاءت فى أربعة آلاف رجل، ثم لم يزيدوا آخرَ ما زادوا على اثنى عشر ألفاً. كان الروم مائة ألف مُقاتلٍ بأسلحتهم ولم تكن المدافع معروفة، ولكن رُوح الاسلام جعلت الجيش العربىّ كأنه اثنا عشر ألفَ مِدفع بقنابلها؛ لا يقاتلون بقوّة الانسان، بل بقوّة الروح الدينيـة التى جعلها الاسلامُ مادةً منفجرةً تُشْبه الدِّيناميتَ قبل أن يُعرَفَ الدِّيناميت!

ولما نزل عمرُو بجيشه على بلبيس، جزعتْ ماريةُ جزعاً شديداً؛ إذ كان الروم قد أرجفوا أن هؤلاء العربَ قومٌ جياعٌ يَنفضهم الجدبُ على البلادِ نَفْضَ الرمالِ على الأعين فى الريح العاصف؛ وأنهم جرادٌ إنسانىٌّ لا يغزو إلا لبَطْنِه؛ وأنهم غِلاظُ الأكباد كالابل التى يمتطونها؛ وأن النساء عندهم كالدّوابّ يُرْتَبَطْنَ على خَسف؛ وأنهم لا عهدَ لهم ولا وفاء، ثقلت مطامعهم وخفّت أماناتُهم؛ وأن قائدَهم عَمْرَو بن العاص كان جزّاراً فى الجاهليّة، فما تَدَعُه روحُ الجزّار وطبيعتُه؛ وقد جاء بأربعة آلاف سالخٍ من أخلاط الناسِ وشُذّاذهم، لا أربعة آلاف مقاتلٍ من جيشٍ له نظامُ الجيش!

وتوهَّمت مارية أوهامَها، وكانتْ شاعرةً قد درست هى وأرمانوسة أدبَ يونانَ وفلسفتَهم، وكان لها خيالٌ مشبوبٌ متوقِّد يُشعِرُها كلَّ عاطفةٍ أكبرَ مما هى، ويضاعف الأشياء فى نفسها، وينزِعُ إلى طبيعته المؤنّثة، فيبالغُ فى تهويل الحزنِ خاصّة، ويجعل من بعض الألفاظ وقوداً على الدم . . .

ومن ذلك استطير قلب مارية وأفزعتها الوساوس، فجعلت تندب نفسها وصنعت فى ذلك شعراً هذه ترجمتُه:

جاءكِ أربعةُ آلافِ جزّارٍ أيّتُها الشاةُ المسكينة!

ستذوق كلُّ شعرةٍ منكِ ألمَ الذبح قبلَ أن تُذبحى!

جاءكِ أربعةُ آلافِ خاطفٍ أيتها العذراءُ المسكينة!

ستموتين أربعةَ آلافِ مِيتةٍ قبلَ الموت!

قوّنى ياإلهى، لاغمِدَ فى صدرى سكّيناً تَردُّ عنى الجزّارين!

يا إلهي ، قوّ هذه العذراء لتتزوّج الموت قبل أن يتزوجها العربي ..!

***

وذهبت تتلو شعرها على أرمانوسة في صوت حزين يتوجّع ؛ فضحكت هذه وقالت : أنت واهمة يا مارية ؛ أنسيت أن أبي قد أهدى إلى نبيّهم بنتاً (أنصنا)[1] فكانت عنده في مملكة بعضها السماء وبعضها القلب ؟ لقد أخبرني أبي أنه بعث بها لتكشف له عن حقيقة هذا الدين وحقيقة هذا النبيّ ؛ وأنها أنفذت اليه دسيساً يعلمه أن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذي سيضع في العالم تمييزه بين الحق والباطل ، وأن نبيّهم أطهر من السحابة في سمائها ، وأنهم جميعاً ينبعثون من حدود دينهم لا من حدود أنفسهم ؛ وإذا سلّوا السيف سلّوه بقانون ، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون . وقالت عن النساء : لأن تخاف المرأة على عفتها من أبيها أقرب من أن تخاف عليها من أصحاب هذا النبيّ ؛ فانهم جميعاً في واجبات القلب وواجبات العقل ، ويكاد الضمير الاسلاميّ في الرجل منهم – يكون حاملا سلاحاً يضرب به صاحبه إذا همّ بمخالفته

وقال أبي : إنهم لا يغيرون على الأمم ، ولا يحاربونها حرب الملك ؛ وإنما تلك طبيعة الحركة للشريعة الجديدة تتقدّم في الدنيا حاملة السلاح والأخلاق ، قوية في ظاهرها وباطنها ؛ فمن وراء أسلحتهم أخلاقهم ؛ وبذلك تكون أسلحتهم نفسها ذات أخلاق !

وقال أبي : إن هذا الدين سيندفع بأخلاقه في العالم اندفاع العصارة الحيّة في الشجرة الجرداء ؛ طبيعة تعمل في طبيعة ؛ فليس يمضي غير بعيد حتى تخضرّ الدنيا وترمي ظلالها ؛ وهو بذلك فوق السياسات التي تشبه في عملها الميت ما يشبه طلاء الشجرة الجرداء بلون أخضر . . . ! شتان بين عمل وعمل ، وإن كان لون يشبه لوناً

فاستروحت مارية واطمأنت باطمئنان أرمانوسة ، وقالت : فلا ضير علينا إذا فتحوا البلد ، ولا يكون ما نستضرّ به ؟

قالت أرمانوسة : لا ضير يا مارية ، ولا يكون إلا ما نحب لأنفسنا ؛ فالمسلمون ليسوا كهؤلاء العلوج من الروم ، يفهمون متاع الدنيا بفكرة الحرص والحاجة إلى حلاله وحرامه ، فهم القساة الغلاظ المستكلبون كالبهائم ، ولكنهم يفهمون متاع الدنيا بفكرة الاستغناء والتمييز بين حلاله وحرامه ، فهم الانسانيون الرحماء المتعففون

قالت مارية : وأبيك يا أرمانوسة إن هذا لعجيب ؛ فقد مات سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة والحكماء ، وما استطاعوا أن يؤدّبوا بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتب التي كتبوها . . . فلم يخرجوا للدنيا جماعة تامة الانسانية ، فضلاً عن أمة كما وصفت أنت من أمر المسلمين ؛ فكيف استطاع نبيّهم أن يخرج هذه الأمة وهم يقولون إنه كان أمياً . أفتسخر الحقيقة من كبار الفلاسفة والحكماء وأهل السياسة والتدبير فتدعهم يعملون عبثاً أو كالعبث ، ثم تستسلم للرجل الأمّيّ الذي لم يكتب ولم يقرأ ولم يدرس ولم يتعلم ؟

قالت أرمانوسة : إن العلماء بهيئة السماء وأجرامها وحساب أفلاكها ، ليسوا هم الذين يشقّون الفجر ويطلعون الشمس ؛ وأنا أرى أنه لابد من أمة طبيعية بفطرتها يكون عملها في الحياة إيجاد الأفكار العملية الصحيحة التي يسير بها العالم ، وقد درست المسيح وعمله وزمنه ، فكان طيلة عمره يحاول أن يوجد هذه الأمة ، غير أنه أوجدها مصغرة في نفسه وحوارييه ، وكان عمله كالبدء في تحقيق الشيء العسير ؛ حسبه أن يثبت معنى الامكان فيه

وظهور الحقيقة من هذا الرجل الأمّيّ هو تنبيه الحقيقة إلى نفسها ، وبرهانها القاطع أنها بذلك في مظهرها الالهي . والعجيب يا مارية ، أن هذا النبي قد خذله قومه ونا كروه وأجمعوا على خلافه ، فكان في ذلك كالمسيح ، غير أن المسيح انتهى عند ذلك ؛ أما هذا فقد ثبت ثبات الواقع حين يقع ؛ لا يرتدّ ولا يتغير ؛ وهاجر من بلده فكان ذلك أول خطا الحقيقة التي أعلنت أنها ستمشي في الدنيا ، وقد أخذت من يومئذ تمشي . ولو كانت حقيقة المسيح قد جاءت للدنيا كلها لهاجرت به ، فهذا فرق آخر بينهما . والفرق الثالث أن المسيح لم يأت إلا بعبادة واحدة هي عبادة القلب ، أما هذا الدين فعلمت من أبي أنه ثلاث عبادات يشدّ بعضها بعضاً : إحداها للأعضاء ، والثانية للقلب ، والثالثة للنفس ؛ فعبادة الأعضاء طهارتها

(١) هي مارية القبطية التي أهداها المقوقس إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وكانت من (أنصنا)

واعتيادها الضبط ؛ وعبادةُ القلب طهارتُه وحبُّه الخير ؛ وعبادة النفس طهارتُها وبذلُها في سبيل الانسانية . وعند أبي أنهم بهذه الأخيرة سيملكون الدنيا ؛ فلن تُقهرَ أمةٌ عقيدتُها أن الموتَ أوسع الجانبين وأسعدُهما

قالت مارية : إن هذا والله لسرٌّ إلهي يدلُّ على نفسه ؛ فمن طبيعة الانسان ألا تنبعث نفسه غير مبالية الحياةَ والموت إلا في أحوالٍ قليلة تكون طبيعةُ الانسان فيها عمياء : كالغضب الأعمى ، والحبِّ الأعمى ، والتكبُّر الأعمى . فاذا كانت هذه الأمةُ الاسلامية كما قلتِ ، منبعثةً هذا الانبعاث ، ليس فيها إلا الشعورُ بذاتيتها العالية — فما بعد ذلك دليلٌ على أن هذا الدينَ هو شعورُ الانسان بسموِّ ذاتيته ، وهذه هي نهايةُ النهاياتِ في الفلسفة والحكمة

قالت أرمانوسة : وما بعد ذلك دليلٌ على أنك تهيئين أن تكوني مسلمةً يامارية !

فاستضحكتا معاً وقالت مارية : إنما ألقيتِ كلاماً جاريتكِ فيه بحسبه ، فأنا وأنتِ فكرتان لا مسلمتان

* * *

قال الراوي : وانهزم الرومُ عن بلبيس ، وارتدُّوا إلى المقوقس في (منف) ، وكان وحيُ أرمانوسة في مارية مدةَ الحصار — وهي نحو الشهر — كأنه فكرٌ سكنَ فكراً وتمدَّد فيه ؛ فقد مرَّ ذلك الكلامُ بما في عقلها من حقائق النظر في الأدب والفلسفة ، فصنع ما يصنع المؤلفُ بكتابٍ ينقِّحه ، وأنشأ لها أخيلةً تجادلها وتدفعها إلى التسليم بالصحيح لأنه صحيح ، والمؤكد لأنه مؤكَّد

ومن طبيعة الكلام إذا أثَّر في النفس — أن ينتظم في مثل الحقائق الصغيرة التي تأتي للحفظ ؛ فكان كلامُ أرمانوسة في عقل مارية هكذا : « المسيحُ بدءٌ وللبدء تكملة ، ما من ذلك بدٌّ . لا تكون خدمةُ الانسانية إلا بذاتٍ عالية لا تبالي غير سموها . الأمة التي تبذل كل شيء وتستمسكُ بالحياة لا تأخذ شيئاً ، والتي تبذل أرواحها فقط تأخذ كل شيء . »

وجعلتْ هذه الحقائقُ الاسلاميةُ وأمثالها تُعرِّب هذا العقلَ اليوناني ؛ فلما أراد عمرو بن العاص توجيهَ أرمانوسةَ إلى أبيها ، وانتهى ذلك إلى ماريةَ قالت لها : لا يجمُل بمن كانت مثلك في شرفها وعقلها أن تكون كالأخيذة تتوجَّهُ حيث يُسارُ بها ؛ والرأي أن تبدئي هذا القائدَ قبل أن يبدأكِ ؛ فأرسلي إليه فأعلميه أنك راجعةٌ إلى أبيك ، واسأليه أنْ يُصحبكِ بعضَ رجاله ؛ فتكوني الآمرةَ حتى في الأسر ، وتصنعي صُنع بناتِ الملوك !

قالت أرمانوسة : فلا أجد لذلك خيراً منكِ في لسانكِ ودهائك ؛ فاذهبي إليه من قبلي ، وسيصحبُكِ الراهبُ (شطا) ، وخذي معكِ كوكبةً من فرساننا

* * *

قالت ماريةُ وهي تقصُّ على سيِّدتها : لقد أديتُ إليه رسالتَكِ فقال : كيف ظنها بنا ؟ قلت : ظنها بفعلِ رجلٍ كريمٍ يأمره اثنان : كرمه ، ودينُه .. فقال أبلغيها أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) قال : « استوصوا بالقبطِ خيراً فان لهم فيكم صهراً وذمة . » وأعلميها أننا لسنا على غارةٍ نغيرها ، بل على نفوسٍ نُغيِّرها

قالت : فَصِفيه لي يامارية

قالت : كان آتياً في جماعةٍ من فرسانه على خيولهم العِراب ، كأنها شياطينُ تحمل شياطينَ من جنسٍ آخر ، فلما صار بحيث أتبيَّنُه أومأ إليه الترجمان — وهو (وردانُ) مولاه — فنظرتُ ، فاذا هو على فرس كُمَيْتٍ أحمَّ (١) لم يخلص للأسود ولا للأحمر ، طويل العنق مُشرفٍ له ذؤابةٌ أعلى ناصيته كطُرَّةِ المرأة ، ذيَّالٍ يتبختر بفارسه ويُحمحم كأنه يريد أن يتكلم ، مُطهَّم . . .

فقطعتْ أرمانوسة عليها وقالت : ما سألتُكِ صفةَ جوادِه

قالت مارية : أما سلاحه . . .

قالت : ولا سلاحه ، صفيه كيف رأيته (هو)

قالت : رأيتُه قصيرَ القامةِ علامةَ قوة ، وافرَ الهامةِ علامة عقل ، أدعجَ العينين . . .

فضحكتْ أرمانوسة وقالت : علامةَ ماذا . . . ؟

. . . أبلجَ يشرق وجهُه كأن فيه لألاءَ الذهب على الضوء ، أيِّداً اجتمعتْ فيه القوةُ حتى لتكادُ عيناه تأمران بنظرهما أمراً . . . داهيةً كُتِبَ دهاؤه على جبهته العريضة يجعل فيها معنىً يأخذ

(١) الكميت الأحم : هو الأحمر الضارب للسواد ، لا يخلص لأحد اللونين ، فاذا كان أحمر خالصاً قيل فيه : كميت مدمى (بتشديد الميم الثانية وفتحها)

من وراء؛ وكلما حاولتُ أن أتفرّس في وجهه رأيتُ وجهه لا يُفسره إلا تكرار النظر إليه . . .

وتضرّجتْ وجنتاها، فكان ذلك حديثاً بينها وبين عينَيْ أرمانوسة . . . وقالت هذه : كذلك كلُّ لذةٍ لا يفسرها للنفس إلا تكرارُها . . .

فغضّت ماريةُ من طرْفها وقالت : هو والله ما وَصفت ، وإني ما ملأتُ عيني منه ، وقد كدتُ أنكر أنه إنسانٌ لما اعتراني من هيبته . . . . .

قالت أرمانوسة : من هيبته أم من عينيه الدعجاوَيْن . . . ؟

* * *

ورجعتْ بنتُ المقوقس إلى أبيها في صحبة (قيس) ، فلما كانوا في الطريق وَجبتْ الظُّهر ، فنزل قيسٌ يُصلي بمن معه والفتاتان تنظران ؛ فلما صاحوا : « الله أكبر . . . ! » ارتعش قلبُ مارية ، وسألت الراهبَ (شطا) : ماذا يقولون ؟ قال : إن هذه كلمةٌ يدخلون بها صلاتهم ، كأنما يخاطبون بها الزمنَ أنهم الساعةَ في وقتٍ ليس منه ولا من دنياهم ، وكأنهم يعلنون أنهم بين يدَيْ مَن هو أكبر من الوجود ؛ فاذا أعلنوا انصرافهم عن الوقت ونزاع الوقت وشهوات الوقت ، فذلك هو دخولهم في الصلاة ؛ كأنهم يمحُون الدنيا من النفس ساعةً أو بعضَ ساعة ؛ ومحْوُها من أنفسهم هو ارتفاعُهم بأنفسهم عليها ؛ أنظري ، ألا ترَيْنَ هذه الكلمة قد سَحرَتهم سِحْراً فهم لا يلتفتون في صلاتهم إلى شيء ؛ وقد شملتهم السكينة ، ورَجعوا غير مَن كانوا ، وخشعوا خُشوعَ أعظم الفلاسفة في تأمُّلهم

قالت مارية : ما أجملَ هذه الفطرةَ الفلسفيّة ! لقد تعبَت الكتب لتجعل أهلَ الدنيا يستقرون ساعة في سكينة الله عليهم فما أفلحت ، وجاءت الكنيسة فهوّلت على المُصلِّين بالزخارف والصُّوَر والتماثيل والألوان لتُوحيَ الى نفوسهم ضرباً من الشعور بسكينة الجمال وتقديس المعنى الدِّينيّ ، وهي بذلك تحتال في نقلهم من جوّهم الى جوّها ؛ فكانتْ كساقي الخمر ؛ إن لم يعطك الخمرَ عجزَ عن إعطائك النَّشوة . ومن ذا الذي يستطيع أن يحملَ معه كنيسةً على جوادٍ أو حمار ؟

قالت أرمانوسة : نعم إن الكنيسةَ كالحديقة ؛ هي حديقةٌ في مكانها ، وقلما تُوحي شيئاً إلا في موضعها ؛ فالكنيسةُ هي الجدرانُ الأربعة ، أما هؤلاء فمعبدُهم بين جهات الأرض الأربع

قال الراهب شطا : ولكن هؤلاء المسلمين متى فُتِحَتْ عليهم الدنيا وافتتنوا بها وانغمسوا فيها — فستكون هذه الصلاة بعينها ليس فيها صلاةٌ يومئذ

قالت مارية . وهل تُفتَح عليهم الدنيا ، وهل لهم قُوّاد كثيرون كعَمْرو ؟

قال : كيف لا تُفتح الدنيا على قوم لا يُحاربون الأمم بل يحاربون ما فيها من الظلم والكفر والرذيلة ، وهم خارجون من الصحراء بطبيعةٍ قويّةٍ كطبيعة الموج في المدّ المرتفع ؛ ليس في داخلها إلا أنفُسٌ مندفعةٌ الى الخارج عنها ؛ ثم يقاتلون بهذه الطبيعة أمماً ليس في الداخل منها إلا النفوسُ المستعدّةُ أن تهرب إلى الداخل . . . !

قالت مارية : والله لكأننا ثلاثتنا على دِين عَمرو . . .

* * *

وانفتل قيسٌ من الصلاة ، وأقبل يترحّل ، فلما حاذى مارية كان عندها كأنما سافر ورجع ؛ وكانت ما تزال في أحلام قلبها ؛ وكانت من الحُلم في عالَمٍ أخذَ يتلاشى إلا من عَمرو وما يتّصل بعمرو . وفي هذه الحياة أحوالٌ « ثلاثة » يغيب فيها الكونُ بحقائقه ؛ فيغيبُ عن السكران ، والمخبول ، والنائم ؛ وفيها حالةٌ رابعة يتلاشى فيها الكون إلا من حقيقةٍ واحدةٍ تتمثّل في إنسان

وقالت مارية للراهب شطا : سَلْهُ : ما أرَبُهم من هذه الحرب ، وهل في سياستهم أن يكون القائد الذي يفتح بلداً حاكماً على هذا البلد ؟

قال قيس : حَسْبُكِ أن تعلمي أن الرجل المسلم ليس إلا رجلاً عاملاً في تحقيق كلمة الله ، أما حظُّ نفسه فهو في غير هذه الدنيا

وترجمَ الراهبُ كلامَه هكذا : أما الفاتح فهو في الأكثر الحاكم المقيم ، وأما الحربُ فهي عندنا الفكرةُ المُصلِحة تريد أن تَضربَ في الأرض وتعمل ، وليس حظُّ النفس شيئاً يكون من الدنيا ؛ وبهذا تكون النفسُ أكبرَ من غرائزها ، وتنقلب معها الدنيا برعونتها وحماقاتها وشهواتها كالطفل بين يدَيْ رجل ، فيهما قوةُ ضبطه وتصريفه . ولو كان في عقيدتنا أن ثواب أعمالنا في الدنيا ، لانعكس الأمر

قالت مارية: فسله: كيف يصنع عمرو بهذه القلة التي معه والروم لا يحصى عددهم؛ فإذا أخفق عمرو فمن عسى أن يستبدلوه منه؟ وهل هو أكبر قوادهم، أو فيهم أكبر منه؟

قال الراوي: ولكن فرس قيس تمطّر وأسرع في لحاق الخيل على المقدمة كأنه يقول: لسنا في هذا . . .

* * *

وفتحت مصر صلحاً بين عمرو والقبط، وولى الروم مصعدين إلى الاسكندرية، وكانت مارية في ذلك تستقرئ أخبار الفاتح تطوف منها على أطلال من شخص بعيد؛ وكان عمرو من نفسها كالمملكة الحصينة من فاتح لا يملك إلا حبه أن يأخذها؛ وجعلت تذوي وشحب لونها، وبدأت تنظر النظرة التائهة، وبان عليها أثر الروح الظمأى، وحاطها اليأس بجوه الذي يحرق الدم، وبدت مجروحة المعاني؛ إذ كان يتقاتل في نفسها الشعوران العدوّان: شعور أنها عاشقة، وشعور أنها يائسة؛

ورقت لها أرمانوسة، وكانت هي أيضاً تتعلق فتى رومانياً، فسهرتا ليلة تديران الرأي في رسالة تحملها مارية من قبلها إلى عمرو كي تصل اليه، فاذا وصلت بلغت بعينيها رسالة نفسها..

واستقر الأمر أن تكون المسألة عن مارية القبطية وخبرها ونسلها وما يتعلق بها مما يطول الاخبار به إذا كان السؤال من امرأة عن امرأة. فلما أصبحتا وقع إليها أن عمراً قد سار الى الاسكندرية لقتال الروم، وشاع الخبر أنه لما أمر بفسطاطه أن يقوّض أصابوا يمامة قد باضت في أعلاه، فأخبروه فقال: « قد تحرّمت في جوارنا، أقرّوا الفسطاط حتى تطير فراخها. » فأقرّوه!

* * *

ولم يمض غير طويل حتى قضت مارية نحبها، وحفظت عنها أرمانوسة هذا الشعر الذي أسمته: نشيد اليمامة:

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها.
تركها الأمير تصنع الحياة، وذهب هو يصنع الموت!
هي كأسعد امرأة؛ ترى وتلمس أحلامها.
إن سعادة المرأة أولها وآخرها بعض حقائق صغيرة كهذا البيض

* * *

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها.
لو سئلت عن هذا البيض لقالت: هذا كنزي.
هي كأهنأ امرأة، ملكت ملكها من الحياة ولم تفتقر.
هل أكلّف الوجود شيئاً كثيراً إذا كلّفته رجلاً واحداً أحبه!

* * *

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها
الشمس والقمر والنجوم، كلها أصغر في عينها من هذا البيض.
هي كأرق امرأة؛ عرفت الرقة مرتين: في الحب، والولادة
هل أكلف الوجود شيئاً كثيراً إذا أردت أن أكون كهذه اليمامة!

* * *

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها
تقول اليمامة: إن الوجود يحب أن يرى بلونين في عين الأنثى، مرة حبيباً كبيراً في رجلها، ومرة حبيباً صغيراً في أولادها.
كل شيء خاضع لقانونه؛ والأنثى لا تريد أن تخضع إلا لقانونها

* * *

أيتها اليمامة، لم تعرفي الأمير وتركك لك فسطاطه!
هكذا الحظ: عدل مضاعف في ناحية، وظلم مضاعف في ناحية أخرى
إحمدي الله أيتها اليمامة، أن ليس عندكم لغات وأديان، عندكم فقط: الحب والطبيعة والحياة

* * *

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها،
يمامة سعيدة، ستكون في التاريخ كهدهد سليمان،
نسب الهدهد إلى سليمان، وستنسب اليمامة إلى عمرو.
واهاً لك يا عمرو! ما ضرّ لو عرفت اليمامة الأخرى..!

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

عصر الخفاء فى مصر الإسلامية

الحاكم بأمر الله

— ٢ —

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٣ —

ولى الحاكم بأمر الله الخلافة حدثاً دون الثانية عشرة (١) ؛ وكان مولده بالقصر الفاطمى بالقاهرة المعزية فى الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٧٥ (١٣ أغسطس سنة ٩٨٥) ، وأمه نصرانية من الملكية ، وكان لها أيام العزيز نفوذ كبير فى الدولة ، حتى أنه عين أخويها بطريقين للملكية ، أحدهما بالاسكندرية ، والآخر لبيت المقدس ، مخالفاً بذلك الرسوم الكنسية المقررة ؛ وكان من أثر نفوذها أن سياسة التسامح الدينى التى اتبعت فى عهد المعز ، قويت أيام العزيز ، وتمتع النصارى واليهود بكثير من الحريات والنفوذ . وقد كان لهذا المنبت أثره بلا ريب فى نفس الحاكم ، وتكوين عقليته الدينية كما سنرى . ولم يترك العزيز من البنين سوى الحاكم (٢) ، ولكنه ترك – من زوجه النصرانية أيضاً – ابنة تدعى سيدة الملك ، كانت أكبر من أخيها ببضعة أعوام ؛ وكانت حازمة عاقلة ذات نفوذ . ومنح العزيز ولاية عهده لابنه الحاكم مذ كان طفلاً فى الثامنة (شعبان سنة ٣٨٣) وبويع بالخلافة يوم وفاة أبيه . وقد انتهى الينا وصف لبعض المناظر التى أحاطت بتولية الخليفة الصبى ، وهى مناظر شائقة مؤسية معاً ، نقلها إلينا المسبحى ، وهو مؤرخ معاصر ووزير الحاكم وصديقه ، نقلاً عن الحاكم ذاته ؛ قال : « قال لى الحاكم ، وقد جرى ذكر والده العزيز : يا مختار ، استدعانى والدى قبل موته وهو عارى الجسم ، وعليه الخرق والضماد ، فاستدنانى اليه وقبلني وضمنى اليه ،

(١) كان عمره بالضبط احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام (المقريزى ٤ — ٦٠)

(٢) رزق العزيز قبل ولده الحاكم ، بابن يسمى محمداً ، ومنحه ولاية عهده ، ولكنه توفى قبل وفاته (نهاية الأرب — نسخة دار الكتب الفتوغرافية ج ٢٦ ص ٥٠)

وقال : وا غمّى عليك يا حبيب قلبى ؛ ودمعت عيناه . ثم قال : امض يا سيدى والعب ، فأنا فى عافية ، قال : فمضيت ، والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه . قال : فبادر إلى بَرْجَوان ، وأنا فى أعلى جميزة كانت فى الدار ، فقال : انزل ويحك ، الله الله فينا وفيك ؛ قال فنزلت ، فوضع العمامة بالجوهر على رأسى وقبل لى الأرض ، وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، قال : وأخرجنى حينئذ إلى الناس على تلك الهيئة ، فقبل جميعهم لى الأرض وسلموا على بالخلافة (١) »

وقع هذا المنظر فى مدينة بلبيس حيث أدرك العزيز مرض موته كما قدمنا ؛ وفى صباح اليوم التالى — وهو يوم الأربعاء ٢٩ رمضان — سار الحاكم إلى عاصمة ملكه فى موكب فخم تظلله أبهة الخلافة ، رهيب يظلله جلال الموت ؛ وأمامه جثة أبيه ، وقد وضعت فى عمارية برزت منها قدماه ؛ وعلى رأسه المظلة يحملها ريدان الصقلبى ، وبين يديه البنود والرايات ؛ وقد ارتدى دراعة مصمت وعمامة بكللها الجوهر ، وتقلد السيف ، وبيده رمح . فدخل القاهرة عند مغيب الشمس فى هذا الحفل الرهيب الفخم ؛ وفى الحال أخذ فى تجهيز أبيه ؛ فتولى غسله قاضى القضاة محمد بن النعمان ، ودفن عشاء إلى جانب أبيه المعز فى حجرة القصر . وفى صباح اليوم التالى ، أعنى يوم الخميس ، بكر سائر رجال الدولة إلى القصر ، وقد نصب للخليفة الصبى فى الايوان الكبير ، سرير من الذهب ، عليه مرتبة مذهبة ؛ وخرج من القصر إلى الايوان راكباً وعلى رأسه معممة الجوهر ، والناس وقوف فى صحن الايوان فقبلوا الأرض ومشوا بين يديه حتى جلس على عرشه ، وسلم عليه الجميع بالأمامة وباللقب الذى اختير له وهو : « الحاكم بأمر الله » ونودى فى القاهرة والبلدان ، أن الأمن موطد والنظام مستتب ، فلا مؤونة ولا كلفة ، ولا خوف على النفس أو المال (٢)

وأوصى العزيز قبل موته بولده ثلاثة من أكابر رجال الدولة

(١) راجع ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠١) ولم يصل إلينا تاريخ المسبحى ذاته ، وإنما وصلتنا منه شذور كثيرة على يد المؤرخين المتأخرين

(٢) نقل إلينا ابن خلكان وصف هذه المناظر عن صاحب تاريخ القيروان (ج ٢ ص ٢٠١) . وراجع أيضاً خطط المقريزى (ج ٤ ص ٦٨) والنجوم الزاهرة (ج ٣ ص ١٢٣)

هم برجوان الصقلبي خادمه وكبير خزائنه ؛ والحسن بن عمار الكتامي زعيم كتامة ، أقوى القبائل المغربية وعماد الدولة الفاطمية منذ نشأتها ؛ ومحمد بن النعمان قاضي القضاة . وعهد بالوصاية الفعلية إلى الأول والثاني . وكان برجوان ، ويسمى أبا الفتوح ، خصياً صقلبياً ، ربي في القصر ، واصطفاه العزيز بالله وولاه أمير القصر ، وخلع عليه لقب « الأستاذ » وهو من ألقاب الوزارة في الدولة الفاطمية ، وعهد اليه بمهام الأمور ، وأولاه ثقة عظيمة . وكان ابن عمار رجلاً قوي الشكيمة ، وافر العصبة ؛ ولكن برجوان كان بظروفه وطبيعة منصبه أوثق اتصالاً بالخليفة الصبي ، وأشد تأثيراً فيه ومقدرة على توجيهه ؛ فلم يلبث أن نشب الخلاف بين الرجلين واشتدت المنافسة بينهما ، وقام ابن عمار بتدبير الشئون بادئ بدء ، وتلقب بأمين الدولة ، وهو أول لقب من نوعه في الدولة الفاطمية ؛ واقتسم الكتاميون من صحبه وشيعته السلطات والمناصب ، وعاثوا في شئون الدولة ومرافقها ؛ وحرضه بعضهم على قتل الحاكم والتخلص منه فأبى استصغاراً لشأنه أو رهبة من العواقب ؛ ولكن برجوان كان ساهراً يرقبه ويتلمس الفرص لمناوأته وإسقاطه ، ويدس له الدسائس ، ويؤلب عليه زعماء الجند الناقمين عليه ؛ فلم يمض عام حتى تفاقمت الصعاب والأحقاد من حوله ؛ ووثب جماعة من الزعماء والجند بتحريض برجوان بالكتاميين وأثخنوا فيهم ، فتوارى ابن عمار ، واضطر أن يترك الميدان حراً لمنافسه (١) ، عندئذ قبض برجوان على زمام الأمور ، واستأثر بكل سلطة حقيقية داخل البلاط وخارجه ، واختار لمعاونته كاتباً نصرانياً يدعى فهد بن ابراهيم ولقبه بالرئيس ، وفوض اليه النظر والتوقيع والمراجعة . ولزم برجوان الحاكم ، يقيم معه بالقصر ، ويسهر على توجيهه ، ويستأثر لديه بكل صلة ونفوذ ؛ واستبد بكل أمر في الدولة ؛ واستقرت الأمور حيناً

واستمر برجوان يتبوأ ذروة القوة والنفوذ زهاء عامين ونصف ؛ وفي عهده وقعت عدة ثورات وقلاقل في الشام والمغرب ، وحاول بعض الحكام والزعماء المحليين الخروج على حكومة القاهرة ؛ فسير برجوان جيشاً إلى الشام بقيادة جيش بن الصمصامة ، فقاتل الثوار في عدة مواقع ، وأخضعهم تباعاً ، واستعاد دمشق ؛ واشتبك مع الروم (البيزنطيين) في عدة معارك في شمال الشام ، وكانوا قد انتهزوا فرصة الاضطراب للاغارة على الثغور وتأييد الخوارج ؛ فهزمهم وردهم إلى الشمال . وسير برجوان جيشاً آخر إلى برقة حيث اضطرمت الثورة ، فرد النظام اليها ، واستعمل عليها يانسا الصقلبي . وكانت الدولة الفاطمية منذ نشأتها تعتمد على تأييد القبائل المغربية ذات البأس والعصبية ؛ ويستأثر زعماؤها بمعظم مناصب القيادة والحكم والادارة حتى عهد المعز لدين الله ؛ ولكن ولده العزيز مال إلى اصطناع الموالي من الترك والصقالبة فقدمهم في القصر وفي الجيش ، وبدأت المنافسة من ذلك الحين بينهم وبين الزعماء والمغاربة (١) وكانت سياسة برجوان ترمي إلى تحطيم نفوذ الزعماء المغاربة ، ونزعهم عن الولايات والثغور ؛ وتوزيع السلطة على نفر من أصدقائه الصقلبيين يستطيع أن يعتمد على ولائهم وأن يسيرهم طبق أهوائه ؛ فعين إلى جانب يانس ، طائفة منهم لحكم الولايات والثغور ، مثل ميسور الخادم والي طرابلس ، ويمن الخادم والي غزة وعسقلان ، وعين بالقصر عدداً كبيراً منهم (٢) وجنح الروم بعد هزيمتهم إلى السلم ، وعقدت بين بلاط القاهرة والأمبراطور بزيل الثاني قيصر قسطنطينية أواصر الصداقة والمهادنة مدى حين (٣)

* * *

ماذا كان موقف الحاكم خلال هذه الفترة الأولى من خلافته ؟ لقد كان برجوان بلا ريب يحجبه ما استطاع عن الاتصال برجال الدولة وبشئونها ، ويدفع به ما استطاع الى مجالي اللهو واللعب ؛ وكانت أم الحاكم وهي نصرانية كما قدمنا ، تشهد ولدها ينمو ويترعرع في ظل هذه الوصاية الخطرة عاجزة عن التدخل لحمايته أو توجيهه ، لأن برجوان لم يفسح لها أي مجال للتدخل في شئون الدولة . غير أن الحاكم كان يشعر رغم حداثته بخطورة المنصب الذي يتبوأه ؛ ولم يلبث أن استرعى سير الأمور اهتمامه ، ولم يلبث أن فطن الى موقف برجوان ، واستئثاره بالسلطة واستبداده بالشئون . ولما بلغ برجوان ذروة السلطان والنفوذ ، كان الحاكم قد أشرف على الخامسة عشرة ، وأضحى الطفل

(١) راجع ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠١) — وابن الأثير (ج ٩ ص ٤٠ و ٤١) والمقريزي (ج ٣ ص ٥٧٤)

(١) المقريزي — ج ٤ ص ٦٨ — وج ٣ ص ١٧ و ١٨
(٢) المقريزي — ج ٣ ص ١٨
(٣) ابن الأثير — ج ٩ — ص ٤٢

فتى يافعاً شديد اليقظة والطموح . وكان برجوان يذهب فى طغيانه وعسفه الى حدود بعيـــدة ، ويثير حوله ضراماً من البغضاء والحقد ، ويحفز بذلك خصومه داخل البلاط وخارجه الى العمل على تقويض سلطانه ومكانته . واعتقد برجوان أن الجو قد خلا له ، فانكب على ملاهيه وملاذه ، يقضى معظم أوقاته فى مجالس الأنس والغنـاء والطرب ، ولم يفطن برجوان من جهة أخرى الى ما وقع فى نفس الأمير الفتى ومشاعره من التبدل والتطور ، فاستمر يعامله معاملة الطفل المحجور عليه ؛ وذهب فى استهتاره الى مدى شعر الحاكم أنه لا يتفق مع مقامه ومكانته ، وربما ذهب برجوان الى حـد الاساءة الى الحاكم ونقض أوامره ، بل الى حد إهانته والتنكر له ، ويقص علينا المقريزى منظراً من هذه المناظر التى اجترأ فيها برجوان على إهانة سيده خلاصته : « أن الحاكم استدعاه ذات يوم وهو راكب معه ، فسار اليه وقد ثنى رجله على عنق فرســه ، وصار باطن قدمه وفيه الخف قبالة وجه الحاكم » ، ونحو ذلك من المناظر والاهانات المثيرة[١]

أحفظت نفس الحاكم لهذا الضغط وهذا الاجتراء ، فأضمر التخلص من ذلك الوصى الطاغيـــة ، وربما تأثر فى هذا العزم بتحريض بعض خصوم برجوان ولاسيما ريدان الصقلبى حامل المظلة وخصمه القوى داخل البلاط ؛ ولـكن لاريب أن الحاكم كان قد بدأ يومئذ يثور لسلطته المسلوبة ، وأخذت تتفتح فى نفسه الوثابة تلك الأهواء المنيفة المضطرمة التى بلغت ذروتها فيما بعد . وعلى أى حال فقد حكم على برجوان بالموت ؛ وفى ذات مساء بعث إليه الحاكم للركوب معه ، وانتظره فى إحدى حدائق القصر ومعه ريدان حامل المظلة ، فوافاه برجوان هنالك ؛ وبعد أن سلم سار الحاكم حتى خرج من باب الحديقة ، فوثب ريدان عندئذ على برجوان فطعنه فى عنقه بسكين ، وانقضت عليه جماعة كانت قد أعدت للفتك به ، فأثخنوه طعنـاً بالخناجر ، واحتزوا رأسه ، ودفنوه حيث قتل (ربيع الثانى سنة ٣٩٠ ـ ١٠٠٠م) ولما عاد الحاكم إلى القصر كان خبر مقتل برجوان قد ذاع على لسان خادمه عقيق ، فاضطربت البطانة ، وأشرف الحاكم عليهم ليرى الخبر ؛ وصاح فيهم ريدان : « من كان فى الطاعة فلينصرف إلى منزله ويبكر إلى القصر المعمور » فانصرف الناس منزعجين ،

(١) المقريزى ج ٣ ص ٥

وفى نفس المساء اتخـذ الحاكم عدته لتوطيد الأمور ، واستدعى الرئيس فهدا ، وهدأ روعه وأقره فى منصبه ؛ وصودرت أموال برجوان وكانت عظيمة طائلة ، واختفى أصدقاؤه من الميدان[١]

— ٤ —

وهكذا ظفر الحاكم لنحو أربعة أعوام فقط من ولايته بأن يطوى مرحلة الحداثة ، وأن يستخلص السلطة لنفسه ، وأن يبدأ عهد الحـكم الحقيقى . وكان الحاكم يومئذ فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، مضطرم النفس والأهواء ، ولـكن وافر الذكاء والجرأة والعزم . فبدأ بتعيين مدبر للدولة مكان برجوان ، ووقع اختياره على الحسين بن جوهر الصقلى . وكان العزيز قد ولاه القيادة بعد وفاة أبيه جوهر ، واصطفاه وأولاه ثقته وعطفه ، فلما توفى العزيز قلد الحسين ديوان البريد والانشاء ؛ ولما قتل برجوان لم يكن بين رجال الدولة من هو أرفع منـه مقاماً وأجدر بتولى الشئون العامة ؛ فاستدعاه الحاكم وخلع عليه ، وقلده النظر فى أمور الدولة والتوقيعات ، ولقبه فى سجل التعيين «بقائد القواد» وعكف الحسين على تدبير الشئون بمعاونة خليفته الرئيس فهد ، وأمر أن تبلغ اليه المهام والظلامات فى مكانه بالقصر وألا يقصد أحد داره ، وألا يخاطب بغير لقبه الرسمى « القائد » دون تعظيم أو تفخيم ، وألا يمنع أحد من مقابلة الحاكم أو الاتصال به ؛ وغدا الحسين بن جوهر وصهره عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، الذى خلف أباه فى منصب القضاء ، أعظم رجلين فى الدولة ؛ واستمر الحسين يدبر الأمور مدى أعوام حتى تغير عليه الحاكم كما سيأتى

وتناول الحاكم إدارة الدولة العليا بيديه ؛ ونظم له مجلساً ليلياً يحضره أكابر الخاصة ورجال الدولة ، وتبحث فيه الشئون العامة ؛ وكانت هـذه أول ظاهرة لهيام الحاكم بالليل والتجوال فى ظلماته . بيد أنه أبطل مجلسه الليلى بعد حين . وتوفى جيش ابن الصمصامة والى الشأم ، فعين الحاكم مكانه فحل بن تميم ، ولما توفى لأشهر من ولايته عين مكانه على بن فلاح ؛ وكان اتجاه الحاكم يومئذ نحو إقصاء الأتراك والصـقالبة وتمكين المغاربة ، كما كان الشأن أيام جده المعز ، ولعله كان يقصد فى ذلك أيضاً إلى هدم سياسة برجوان فى اصطفاء الصقالبة . ووفد عليه ولد جيش بن الصمصامة يحمل وصـــية أبيه التى يوصى فيها بجميع أمواله

(١) المقريزى — ج ٣ ص ٥

للحاكم ، ويحمل اليه الأموال الموصى بها ، وكانت تبلغ نحو مائتي ألف دينار بين نقد ومتاع ، فقرأ الحاكم الوصية ورد المال إلى أهله ؛ ودلل بذلك على صفة من أخص صفاته ، هي العفة عن مال الرعية ، والزهد في المال بصفة عامة ؛ وسنرى أنه يدلل على هذه الخلة في مواطن كثيرة

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان
المحامي

النقل ممنوع

صورة في المرآة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

إن كل شيء ممكن ولا سيما في هذه الأيام . وليس لأحد أن يكذب إمكان حدوث شيء بعد أن شهد هذا العصر ما شهد من صنوف المخترعات والمبتدعات . فمن ذا الذي كان يحلم أن الانسان قد يكون جالساً إلى مكتبه بالقاهرة ، فيسمع موسيقى دار الأوبرا في باريس أو فينا ؟ وينصت إلى نجوى النظارة وتصفيقهم ، حتى كأنه جالس معهم هناك يسمع ما يسمعون ويشهد ما يشهدون ؟ وما هي إلا خطوة واحدة ثم يستطيع الانسان أن يسمع ويرى في آن واحد . فيتيسر له عند ذلك أن يرى بعينه أهل باريس أو فينا أو سواها ، وهم يتمايلون للموسيقى ويعجبون بالراقصة أو المغنية ، وأن يرى المسرح بما فوقه من الفتن الشهية ، ولن يحس الناس عند ذلك بوجود المسافات ولا بحدود الدول والبلدان . وهكذا أرجو إذا أنا وصفت للقراء ما أوصلني إليه الدأب ، ومكنني منه الدرس من الاختراع ، ألا يكذبني مكذب ، فما غرابة قصتي هذه بمنقصة من قدرها ، إذ صارت الحقائق أعجب من صور الخيال ، وأصبح إدراك المشاهد أعسر على الذهن من تصور الخيالات ، فبينا يرى الانسان الآلة المحدثة بين يديه حقيقة ماثلة ملموسة إذا به يراها عند غاية الاستعصاء والغموض والتأبي

ولقد وفقني الله لاختراع آلة عجيبة ، ولكنها من مثل تلك الآلات المحدثة التي ذكرتها آنفاً تراها وتلمسها ، وتؤمن بأنها حيالك ماثلة موجودة . ثم تحار في معرفة كنهها والغوص إلى موضع سرها . هي مرآة لا أكثر ولا أعظم ، ولا يختلف ظاهرها عن المرآة المعتادة إلا في أنه يحيط بها إطار به لوالب مختلفة لتحريكها وتحديد موضعها . ولكنها في حقيقتها فذة فريدة ، إذ أنها لا تنقل إلى الرائي صورة وجهه إذا نظر اليها ، بل لقد يظهر له فيها إذا وضعها أمام عينيه شكل شخص آخر ، أو شكل بعض الحيوان ، أو شكل كائن آخر من الكائنات ، ولعلها تفزع من لا عهد له بها ولا دراية له بسرها ؛ فقد تنظر اليها حسناء لترى هل دهان شفتيها لا يزال هناك لم تخطفه الشمس ولم تمحه بنان النسيم ، فترتاع إذ تجد المرآة تبرز لها صورة كريهة كصورة قرد مثلاً ، أو كصورة عجوز شوهاء . وقد ينظر اليها فتى من الفتيان ليتحقق من أن سحر عينيه لا يزال على عهده به ، وأن موضع رباط رقبته لا يزال حيث رآه آخر مرة في آخر مرآة مر بها من تلك الزجاجات المنصوبة على جوانب الحوانيت والدكاكين الكبرى فتظهر له صورة أخرى مثل صورة فتاة لعوب ، أو صورة تيس أو حيوان آخر مما تعارف الرجال على كراهة التشبه به والظهور في مظهره . ولكن الانسان إذا عرف أن هذه المرآة لا تظهر للرائي صورته ، لم يلتمس أن يرى فيها صورة نفسه ، وبذلك يحفظ نفسه من الألم الذي قد يصيب من يجهل أمرها وسرها . فان سر تلك المرآة أنها لا تلتقط إلا أشعة الضوء القديمة التي مضى على سيرها آلاف السنين على الأقل . وهذا الأمر يحتاج إلى شيء من التفسير ، ولكني سأشرحه شرحاً يسيراً حتى لا أخرج بالقارئ طويلاً عن صلب القصة

أنت تعلم أن المادة لا تفنى ، وأن الطاقة لا تنعدم ، فهذا يعرفه كل من درس أوليات العلم . وتعلم أن شعاع النور طاقة ، والنور على ذلك لا ينعدم . فاذا سار الشعاع الضوئي في الفضاء فانه يظل سائراً إلى أبد الدهر إلا إذا تحول إلى طاقة أخرى . وتعلم أن الانسان يرى الأشياء لأن الضوء يقع عليها ثم ينعكس منها إلى عينه فيحمل صورة الأشياء إلى العين . فاذا سار الشعاع المنعكس إلى أبعد الجهات أمكن أن يحمل صورة الأشياء إلى تلك الجهات البعيدة . والضوء كذلك يسافر بسرعة هائلة ، فهو يحمل الصور بتلك السرعة ، ولكن المسافة إذا كانت بعيدة جداً لم يستطع الضوء أن يقطعها إلا بعد مدة قد تكون طويلة ، فان

شعاع الضوء يأتى إلى الأرض من بعض الكواكب فى أعوام وقرون ، ومنها ما يصل إلى الأرض من كوكب بعيد فى آلاف السنين

هذه كلها مقدمات ، وهناك بعد ذلك أمر آخر ، وهو أشد استعصاء على الفهم ، وذلك أنني قد كشفت أن الضوء لا يسير فى خط مستقيم كل الاستقامة ، بل إنه منحن قليلاً ، فاذا سار منحنياً على هـذا النمط تـكونت من سيره دائرة ، لأن الدائرة تتكون من خط منحن انحناء منتظماً سائراً على نمط واحد . فاذا سار شعاع فوقع على شىء ثم انعكس إلى الفضاء ، فانه يسير حاملا صورة الشىء الذى وقع عليه ، ويستمر فى سيره دائراً حول الأرض حتى يعود إلى موضعه ، ولا يزال يفعل هكذا أبد الدهر ، فاذا اسـتطاع إنسان أن يخترع آلة من خواصها أن تقبض على هذا الشعاع التائه فى الفضاء ، أمكنها أن تتلقى صورة الشىء الذى انعكس منه ذلك الشعاع

وإذن فالأمر هين ، إذ اخترعت مرآة من معدن خاص لا يلتقط إلا الأشعة الضعيفة التى قضت فى سيرها فى الفضاء أو فى دورانها حول الأرض آلاف السنين . ومن شأن هذه المرآة أنها لا تلتقط الأشعة القوية الطازجة ، فان تلك الأشعة تقفز عن سطحها قفزاً بغير أن تثبت قليلاً لتنعكس عليه ، فالذى ينظر إلى تلك المرآة لا يرى فيها شيئاً إلا إذا اتفق أن سقط عليها شعاع من تلك الأشعة المعتقة التى تنم عن أشياء الماضى وحوادث الماضى ، كما أنها قد تلتقط أيضاً أشعة النجوم البعيدة إذا كانت لا تبلغ الأرض إلا معتقة أى بعد آلاف السنين من تركها كواكبها

أخذت هذه الآلة يوماً كعادتى كلما خرجت إلى نزهة وذهبت إلى جوار الأهرام لأجول حولها جولة ، ولما أتعبني ذلك التجوال جلست أسـتريح على حجر من تلك الأحجار الضخمة التى قد انفرطت من عقدها ، ولم يكن معى كتاب أقطع الوقت بالقراءة فيه ، فأخرجت الآلة أنظر فيها وأقلبها فى يدى ، فقد عودتنى كلما نظرت فيها أن أجد صـورة مسلية من صور الماضى إذ تلتقط شعاعاً من تلك الأشعة القديمة التى تقص على نبأ حديث قد مضت على وقوعه القرون الطويلة . ولـكنها لم تحقق أملى عند ما نظرت فيها فلم أنزعج من ذلك ، وقلت إن الموضع الذى كنت فيه ليس مما تـكثر به الأحداث والقصص . وجعلت أتأمل لون مائها وأحدق فى نـكتة سوداء عند حافتها لا أقصد من وراء ذلك إلا العبث والتلهى . فلاح لى عند ذلك خيال يتحرك فيها وكان خيالاً ضئيلاً . فعلمت أن المرآة قد التقطت شعاعاً ، ولـكنه شعاع قوى لم تمض عليه المدة الـكافية لأضعافه وتعتيقه ، فجعلت أحدق فى المرآة حتى استطعت أن أتبين الصورة بشىء من الجلاء

رأيت الفضـاء الذى حولى هضبة مستوية ليس عليها شىء غير كوم واحد ، فعلمت أن ذلك الشعاع يحمل صورة الهضبة قبل أن تبنى فيها الأهرام الصغرى وعند ما كان الهرم الأكبر لا يزال يبنى . وكان الهرم لم يبلغ بعد نصف علوه ، وكان يدور حوله جسر من التراب كالحلزون يتضايق كلما ارتفع ، وكان على ذلك الجسر ألوف من الناس بعضها صاعد وبعضها نازل تلوح فى الصورة كما يلوح النمل فى قرية من قراه تتماوج فى ترددها بين الجيئة والذهاب ، تارة تتقارب وأخرى تنتشر ، وتارة تجتمع وتارة تتفرق . ورأيت سموطاً من تلك الألوف قد اجتمع كل سمط منها عند جبل قد أخذ كل فرد بقبضة منه ، وكان وراء كل سمط جماعة فى أيديهم السياط فلا يكاد أحدهم يرى رجلاً قد استرخى فى عمل حتى يهوى عليه بالسوط ، فاذا به يقفز إلى الأمام وقد تشنجت عضلاته وأقبل على العمل عنيفاً ، وكان كل سمط من هـذه السموط يجر بالحبل الذى اجتمع عليه حجراً ثقيلاً من تلك الحجارة الضخمة التى نراها اليوم فى بناء الهرم ، فلا يزال السمط يجرر الحجر حتى يعلو به الجسر الدائر حول البناء ثم يصعد به جانب ذلك الجسر فيـدور حوله صاعداً فى دورانه حتى يبلغ أعلى البناء فيقربه إلى حافة البناء ويضعه حيث يطلب البناؤون وضـعه . فاذا ما بلغ المساكين الذين يجررون الحجر أعلى البناء ووضـعوا الحجر وهم يلهثون من التعب انطرحوا على الأرض إعياء يطلبون بعض الراحة ويستردون النفَس المنبت ، غير أنهم لا يكادون يلمسون الأرض بجنوبهم حتى تلحق بهم جماعة المراقبين فيهوون عليهم بالسـياط يمزقون بها جلودهم . فيهب الأشـقياء مرتاعين يتلوّون من ألم الضرب يجررون أرجلهم بما استطاعوا من السرعة ويهبطون إلى أسفل البناء لـكى يعيدوا الـكرة فينقلوا حجراً جديداً لبناء هرم فرعون

والحق لقد آذاني ذلك المنظر وتفظعته من شدة قسوته ، فهممت أن أضع المرآة حتى لا أرى بقيته ، لولا أنني رأيت شيئاً أخذ على انتباهي قسراً فلم أجد حيلة في الانصراف عنه أو الانفلات منه . وذلك أنني بصرت بسمط من هذه السموط البشرية قد علا جانب الجسر سائراً في خطاه الوئيدة يحرك حجراً جديداً نحو أعلى البناء ، غير أنه ما توسط الجسر حتى هبط عليه حجر أفلت من سمط فوقه إذ تقطعت الأحبال التي كان أصحابه يجررونه بها فوقع الحجر متدحرجاً فأصاب في طريقه ذلك السمط الصاعد فدك جماعة منه دكاً وحطم أعضاء جماعة أخرى . فتفرق الناجون مرتاعين أيما ارتياع والموت الفظيع في أعينهم الحائرة المذعورة ، وسمع صياحهم بعض أخوانهم فما هي إلا لحظة حتى اجتمع حول المكان ألوف من العمال مضطربين هلعين ، وفيما هم في ذلك أقبل الرقباء وفي أيديهم السياط فأهووا عليهم من كل صوب لا يبالون أين يقع السوط منهم ، ففر البعض إلى أسفل وتردد البعض قليلاً ، ثم مضوا إلى أسفل في شيء من التلكؤ ، وعادوا إلى حجارتهم يزحزحونها شبراً فشبراً نحو أعلى الهرم فانجلى المنظر عن بقية ضئيلة واقفة حول مكان الكارثة وعن رجل قد ارتمى على أحد الضحايا يبكيه ويطبع فيه قلباً محباً

تخيل إلي أنه أخ قعد ليرثي أخاه الفقيد ، أو صديق برح به الوجع عندما رأى صديقه يختطف من بين الجموع على هذه الحال المؤلمة ، فارتمى عليه يبكيه ويؤدي اليه حق القلب الانساني في رثاء الصديق الحميم ؛ غير أن المقام لم يطل به على ذلك ، فقد عاد اليه الرقباء وفي أيديهم السياط ، فألهبوا ظهور من بقي حول المكان ، وأهووا اليه بالسوط فمزقوا ظهره العاري وهو مكب على جثة صاحبه ، فقفز الرجل من الألم ، وانتفض انتفاضة كأنما هو وحش استثير ، وأقبل على الذي ضربه من الرقباء ، فرفع هذا يده بالسوط ليعيد عليه الكرة فلم يمكنه من ذلك ، بل أسرع في سطوة الغاضب وانتزع السوط من يده ثم علاه به مرتين ، ثم دفعه الى الارض فتدأدأ عليها ، وكان قريباً من حافة البناء فهوى في الفضاء فلم يستقر إلا على سطح الهضبة بعد أن تهشم وتحطم . ثم وقف الرجل على حجر من أحجار البناء متحدياً سائر الرقباء ، فلم يجرؤ منهم أحد على الاقتراب منه ، وعاد الاضطراب الى مثل ما كان عليه ، وأسرع ألوف من العمال مرة أخرى نحو المكان ينظرون الى الحدث الجديد وينتهزون فرصة للراحة من عملهم المضني . غير أنها لم تكن سوى مدة قصيرة ، فاذا الجمع يضطرب في جانب من جوانبه ، ثم إذا بالاضطراب يسير خطوة خطوة بين الوقوف ، ثم إذا بالجمع ينفرج عن رجل شيخ يسير في تؤدة ووقار ، وهو كلما سار في جمع انفرج له وركع من حوله إجلالاً وخشوعاً ، فلقد كان ذلك هو كاهن القوم أتى بأمر الاله (رع) ، وأقبل بكلمة الحكمة من (تحوت) ، وكان يلبس ثوباً طويلاً يظهره من بين الجموع العارية ، وقد تدلت على صدره لحية طويلة بيضاء كاللبن ، وكان طويل القامة في انحناء يسير بأعلى ظهره ، وعلى رأسه منديل يغطي شعره الى شحمتي أذنيه ، وقد لف حوله عصابة تمسك به حول الرأس . فلما صار على قيد ذراع من العامل الثائر وقف وحرك شفتيه ببعض القول ثم رفع يمناه بطيئاً نحو الرجل وتكلم كلمات أخرى ، غير أن الرجل وقف وقفته الأولى ولم يزل متحدياً ، وحرك شفتيه ببعض كلمات والغضب باد في عينيه ، وجعل ينظر الى القوم الذين اجتمعوا حوله كأنه يستنصر بهم ، فنظر الكاهن الشيخ لحظة نحوه ، ثم نظر الى الألوف الواقفة حوله وتكلم ، وجعل يرفع يديه نحوهم في تؤدة ووقار وهو يتكلم . فقضى على ذلك حيناً ، ثم وقف ونظر الى الجمع فاذا بحركة تبدأ في الواقفين وتتزايد ، ثم ما هي إلا لحظة حتى كان الجمع مضطرباً يصيح رافعاً أيديه مهدداً غاضباً وهو متجه نحو الزميل المجرم المسكين . فرأيت العامل الشقي ينظر نحو من حوله وهم حانقون يتهددونه ويتوعدونه ، وعند ذلك لم يقو على المضي في مقاومته ، بل داخله اليأس وتخاذل مضطرباً ؛ فنظر الكاهن اليه وجعل يتكلم بكلمات ويرفع يمناه مرة أخرى نحوه ، فرأيت العامل المسكين يمد يده بالسوط فيسلمه وينزل عن الحجر الذي كان واقفاً عليه ويتقدم في ذلة وخشوع نحو الشيخ الكاهن

فتكلم الكاهن مرة أخرى ، ونظر نحو الجمع الزاخر حوله في تؤدة ووقار ، ثم رفع يده نحوه ، فألقى الكل ساجدين ، ثم وقفوا خاشعين ، ونظروا الى الكاهن وهو يقبض على يد أخيهم الشقي ، ثم نظروا اليه وهو يسير به نحو حافة البناء ويمصب عينيه ، وكانوا عند ذلك لا تتحرك منهم يد ، ولا تطرف

الدرر الكامنة

للأستاذ محمد كرد علي
عضو مجمع اللغة العربية الملكي

طبعت عدة كتب في الطبقات والتراجم لأهل القرون الماضية في الأسلام ، والى الآن لم تطبع تراجم أهل القرن الثامن والتاسع والعاشر ، مع أن تراجمهم عُنِيَ بها في القرن الثامن ابن حجر العسقلاني المصري المتوفى سنة ٨٥٢ ، ووضع تراجم أهل القرن التاسع السخاوي المصري المتوفى سنة ٩٠٢ ، وتراجم أهل القرن العاشر قام بتدوينها الغزّي الدمشقي المتوفى سنة ١٠٦١ وسمى الأول كتابه « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » ، والثاني « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » ، والثالث « الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة »

ومن لطف المولى أن هذه الكتب الثلاثة بقيت في الأرض وظفر بعدة نسخ منها في خزائن الشرق والغرب ، لا كأكثر تركة أسلافنا بُعثرت وأحرقت وأغرقت وأصابها كل خطب عظيم

ترجم صاحب الدرر الكامنة لألف وثلثمائة وثلاثة وأربعين رجلاً وامرأة ، تراجم اعتمد في وضعها على من سبقوه في هذا الشأن من رجال التاريخ ، أو كانوا ممن عاصرهم وسمع عنهم وأخذ منهم الحديث ، أو أخذ مشايخه عنهم . ويغلب على ابن حجر الحديث والعناية برجاله ونسائه ، ولذلك ذكر عشرات من المحدثات ممن كن يروين الأحاديث النبوية ويروّينها . وترجم لبعض المشهورين تراجم لا بأس بها . ترجم لابن تيمية ، ولسان الدين بن الخطيب ، والصلاح الصفدي ، وابن فضل الله العمري ، وابن كثير ، والبرزالي ، والذهبي ، وشيخ الربوة ، وأبي الفداء ، وابن المطهر الشيعي ، وغازان ، وابن دقيق العيد ، والبدر البلقيني ، وابن الوكيل ، وابن سيد الناس ، وابن نباتة ، وابن الحاج ، وابن الكرم ، والشمس القونوي ، وابن الوردي ، وابن جماعة ، والتاج السبكي ، والتقي السبكي ، والأردبيلي ، وابن الأكفاني ، والخطيب القزويني ، وابن الزملكاني ، وأبي حيان الأندلسي ، والقطب الشيرازي ، والبازري ، والمزّي ، وغيرهم

والى جانب هؤلاء تجد تراجم أناس من الخاملين كبعض المجاذيب والموظفين والطلبة ، كأن لسان حال ابن حجر يقول : يجب ألا يحتقر أحد ، وأن يدون كل شيء . ولكن هذه الطبقة شغلت فراغاً من الكتاب على غير جدوى ومثلهم كثير في كل عصر ومصر ، لو تطلعت نفوسنا الى التعرض لذكرهم لملأنا منها قماطر ودفاتر ، والمقصود تدوين سير العظماء ممن كان لهم أثر محمود في علم وعمل . وفي نظرنا أن من أهم من دون المؤلف حياتهم بعد علماء الدين ورجال الأدب أناساً من أرباب الغناء والموسيقى والهندسة والطب ، وبهم في الجملة عرفنا روح ذاك القرن ، قرن المماليك في مصر والشأم ، بل مبدأ قرون الانحطاط ومنتهى قرون الارتقاء في الاسلام

يقع القارئ في هذا السفر على الروح الذي سرى في ذاك العصر إلى النفوس فلونها بلوثات التعصب الذميم . وقد ذكرها المؤلف على الأكثر غير متعرض لجرح أو تعديل فيها . بيد أن القارئ امهدنا ، وقد وضع المؤلف أمامه هذه الوثيقة أو الوثائق التاريخية الكافية ، تهيء له أسباب الحكم على ذاك المجتمع الذي فاض بالجور السياسي والجور الفكري . فالجور السياسي غزوات

لهم عين ، وهم ينظرون الى رسول الحكمة ونجي الآله ينفذ رغبة (رع) في العدل والرحمة ، وتريث الكاهن قليلاً ، وهو يحرك شفتيه خاشعاً بشيء يشبه الصلاة ، فلما أتمها دفع العامل الشقي فجأة فقذف به على المنحدر الذي هوى عليه من قبل الرقيب القاسي ، وتحطم كما تحطم ذلك الرقيب من قبل

ونظر الكاهن الى الجمع المحدق به وقال لهم كلمات خروا بعدها للأذقان سجداً ؛ ثم قاموا فأشار إليهم إشارة أخرى فانصرفوا وتبددوا كما يتبدد السحاب في الريح ، فما هي إلا لحظة حتى عادت السموط تنتظم ، وتجرر الأحجار نحو أعلى المنحدر صاعدة الى قمة البناء الهائل ليبنوا لفرعون قبراً جديراً بمجده

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، وكنت قد امتلأ قلبي بما رأيت ، فقمت عن الصخرة التي كنت جالساً عليها ووضعت المرآة في جيبي ، وجعلت أعزي نفسي عن وقع ما رأيت بأن أقول لها : « رويدك يا نفس ! فما زال الانسان هو الانسان »

محمد فريد أبو حديد

الططر (التتر) من الشرق على الديار الشامية ، أى الجزء المتمم للمملكة المصرية إذ ذاك ، وغزوة بعض شعوب الأفرنج بعض السواحل المصرية حتى افترصها أحد الجوَرة من المماليك فرصة ليصادر النصارى فى مصر ويستصفى ما فى بعض كنائسهم من الجواهر والمعادن الكريمة أو يخربها حباً فى التخريب وإبلاغاً فى النكاية على زعمه . هذا هو الجوز السياسى . أما الجور الفكرى فتحامل الموسومين بالدين على من بيّت منهم بعض نزعات قيل إنها مخالفة للشريعة فكان جزاؤهم القتل . وما نظن أكثر تلك التهم مما يصح أن يتهم به صاحبه من أنه جنى بما قال على الدين إذا تدبرنا ما لاقاه شيخ الاسلام ابن تيمية من متعصبة العلماء فى عصره فى مصر والشام ، وهو النابغة الذى عقمت القرون عن أن تلد أمثاله بعلمه وعقله وإخلاصه على ما دوّن ذلك ابن حجر فى هذا الكتاب . فكانت ترجمته له أحسن ترجمة فيه لأول عالم نبغ فى أول القرن

ثم إن من نظر فى كتب المتأخرين وكتب المتقدمين يجد فروقاً كثيرة بين الأولى والثانية : فروقاً فى الأسلوب وفى المكتوب ؛ وهل التاريخ إلا مرآة العصر الذى يكتب فيه ، وروح صاحبه الذى يمليه ؟ وما كان لابن حجر أن يكتب فى التراجم ويجوّد إجادة ابن خلكان فى وفيات الأعيان مثلاً ، ولا للسيوطى فى مؤلفاته التاريخية أن يجود تجويد الكندى صاحب كتاب ولاة مصر وقضاتها ؛ وهكذا قل فى الزمن الذى بدأت فيه الشروح والحواشى فى الكتب الدينية ، وصار من يسلخ من كلام غيره أو يمسخه وينسخه يعد مؤلفاً فيزيد عدد الأسفار المحفوظة فى الخزائن على غير فائدة جليلة

***

تمنيت فى سنة ١٣٢٨ ﻫ (١٩١٠ م) فى مجلة المقتبس ، وقد درست هذا الكتاب فى نسخة خطتها أنامل ابراهيم البقاعى أحد أعلام عصره — الذى قال فى نسخته : وكان فراغى من هذه فى ١٧ شوال سنة ٨٥٩ بمنزلى بحارة بهاء الدين فى القاهرة — تمنيت لو يقوم رجل منا فيطبع هذا الكتاب ، وقلت يومئذ لو لم يكن فى هذا الكتاب سوى ترجمة شيخ الاسلام ابن تيمية ، لكان كافياً فى طبعه ؛ ولكن قوى شغلتهم الشواغل ، وأصيبوا بالاهمال ، فهيأ لطبعه صديق العلامة كرينكو أحد علماء المشرقيات من الألمان ، فطبعه فى أربعة مجلدات فى أكثر من ألفى صفحة معارضاً له على نسخ مهمة ، وذلك على يد مجلس دائرة المعارف العثمانية فى حيدر آباد الدكن من ممالك الهند . وقد اعتادت هذه الدار أن تطبع من كتب العرب كل مفيد ، فأحيت كتباً فى الحديث والفقه والأصول واللغة والأدب والتاريخ والفنون ، ونشرت حتى الآن نحو ثمانين كتاباً منها ما دخل فى بضعة مجلدات ضخمة ، ومما طبعت لابن حجر مؤلفنا الذى نحن بصدد الكلام على كتابه « لسان الميزان » و « تهذيب التهذيب » و « تعجيل المنفعة فى رجال الأئمة الأربعة » الخ

هذا ولا يسعنا إلا أن ننوه بالناشر الغيور على العلم ، وقد رأيناه جود معارضة النسخ وإثبات الصحيح من النصوص على عادة علماء المشرقيات فى تدقيقهم إذا أرادوا طبع كتب العرب ؛ وكم لهم من أياد بيضاء علينا لا ينكرها الا منكر الجميل وغامط العارفة . وحبذا لو شفع الناشر هذا الكتاب الجليل بالفهارس المنوعة التى تسهل على العلماء الأخذ منه ، فان كتاباً بلا فهرس تقل فائدته إذا كان من كتب المراجع ؛ وعلمت أن الناشر وضع الفهارس والطابع تأخر فى طبعها ، وما أدرى ما اعتذاره

وقد نشر السيد سالم الكرينكوى — كما دعا نفسه — كتاب التيجان لوهب بن منبه ، وأخبار اليمن لعبيد بن شرية ، وحماسة ابن الشجرى ، أتكلم عليهما فى فرصة أخرى وأكتفى هنا بشكره ، وأن أوجه نظره إلى كتاب آخر لابن حجر لا يقل عن الدرر الكامنة فى الفائدة ، وهو « إنباء الغمر فى أبناء العمر » وفى الخزانة الظاهرية بدمشق مسودة هذا المخطوط بخط مؤلفه ، وهو تعليق كما قال فيه جمع فيه حوادث الزمان منذ مولده سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، وهلمّ جرا مفصلاً فى كل سنة أحوال الدول ووفيات الأعيان ، مستوعباً لرواة الحديث خصوصاً من لقيه أو أجاز له . وقد امتد هذا الكتاب إلى سنة خمسين وثمانمائة ، وجاء من ذيل عليه ، كما جاء من اختصر له الدرر مثل ابن المبرد وجلال الدين السيوطى الذى عرف بالولوع باختصار الكتب

القاهرة — محمد كرد على

الفن والطبيعـــة

بقـــلم نظمى خليل

.. ونعنى بالطبيعة العالم المرئى الذى يقع تحت بصرنا ، ولسنا نبنى من وراء تعريفنا للطبيعة تحديدها أو تبسيطها ، ولكننا نريد أن نعرف هل هناك تباين بين العالم المرئى وبين الفنان ، وهل هناك اختلاف جوهرى بين جمال العالم المرئى ، وذلك الجمال الذى نراه ونحس به عندما ننظر إلى لوحة مصور أو تمثال مثَّال ؟

إذا أجبنا عن هذا السؤال بالايجاب ، وهو الحق والصواب كما أعتقد — رأينا أنفسنا مضطرين الى أن نشرح وظيفة الفنان الذى يقف بيننا وبين الطبيعة . فلو وقف الفن عند سرد مناظر الطبيعة ، أو اقتصر على التقاط مناظرها وصورها كما هى ، لرأينا آلة التصوير تسرع إلى انتزاع مكانة التصوير . ولكن الحقيقة أن الفن ليس تمثيلاً للطبيعة ، ولكنه تفسير لها . ولسنا نغالى إذا قلنا إن الفن يبتدئ حيث يترك الفنان صحبته القوية للطبيعة ، بعد أن يشيع فى جوها أنغاماً من عمله الخاص تبعاً لشعوره الشخصى وذوقه الموسيقى . فالطبيعة معين لن ينضب للفن ، — وهى اليوم — كما كانت ، وكما ستبقى أبداً — أكبر موحٍ له بروائع الحسن والجمال . ولكن القوانين التى تتحكم فى عمل الفن منفصلة تماماً عن قوانين الطبيعة . فاذا كانت النغمة التوافقية فى موسيقى الرعاة عملاً فنياً جليلا ، فذاك لأن بيتهوفن لم يحاك نغمات الطبيعة تبعاً لشروط الموسيقى وقوانينها ، وأفصح عن تلك العواطف الخاصة التى أثارتها فيه صحبته القوية للطبيعة فى أنغام سامية ، كانت من وحيه وإلهامه ، ثم وجهت فى هذا الطريق الموسيقى بواسطة المهارة الفنية التى هى أصيلة فى كل عمل فنى . . .

يقول بعض الناس إن مهمة الفن فى هذا العالم هى أن يكمل ما فى الطبيعة من نقص . وقد يفهم البعض منهم أن الفن يأتى بأشياء ليست فى الطبيـــعة ، أى أنه يزيد فى مواد الطبيعة الأساسية . ولكن هذا الفهم خطأ ، وهذا الظن إثم وجور على الطبيعة . فليس لدى الفن ما يجود به على الطبيعة من روائع المناظر وعجائب الآثار . . وليس لدى الفنان شىء جديد . ولكن لديه شيئاً واحداً ، وهو الذى يخدع هؤلاء البسطاء ، فيتوهمونه زيادة أو جديداً ، هذا الشىء الذى يبدو جديداً هو الحصر أو التحديد لمناظر الطبيعة ومظاهرها . فقد يرى إنسان نهراً يجرى فلا يحس إحساساً كاملا بروعة مياهه وقوة تياره ، وما على شاطئيه من رمال ونباتات أو غابات وصخور . قد لا يفطن الناظر إلى هذا النهر للجمال المختبىء فى هذه المناظر الطبيعية الفسيحة الضخمة الهائلة . فينصرف عن النظر إليها الى صورة رسام أو مصور ماهر قد صور هذا النهر وهو يتدفق ويتغلغل فى الاحراج والجبال

وليس معنى هذا أن النهر الجارى أقل جمالاً وروعة من صورة الرسام ، لا ، بل إن الناظر نفسه لم يفطن إلى هذا الجمال الأصيل فى تلك المناظر الطبيعية العظيمة ، لأنه جمال متشعب فسيح . فلما جاء الفنان وحصره فى لوحته الصغيرة ، أمكنه أن يشعر به ، وأن يقف على أسراره الدفينة ؛ ولو أمكن الرائى أن يدرك الجمال الطبيعى فى مظهره الطبيعى لوجده جمالا خالصاً عبقرياً . ولكن عين الانسان لا تستطيع أن تأخذ النهر الجارى من منبعه إلى مصبه ، أو أن تلقى نظرة كاملة على الجبل الشامخ من قمتـه إلى سفحه . فان حاولت ذلك لحقها الكلل والملال ، وفضلت النظر فى الصورة على التطلع إلى المرئى ذاته مهما يكن جماله وروعته

هذا هو الشائع بين الناس . ومن أجل هذا قيل إن الفن يكمل ما عجزت عنه الطبيعة ، والحقيقة أن الفنان لا يزيد شيئاً على ما فى الطبيعة من ثروة وغنى ، وإن كان يحصر هـذه الثروة ويبرزها فى صورة جميلة ومنظر بهى . . .

هذا شىء ، والشىء الآخر هو أن الفن ليس محاكاة للطبيعة أو للحياة ، ولكنه خلاصة مافى الطبيعة والحياة

فالفن قد يحاكى الطبيعة ، وقد يحاكى الحياة ، ولكنه لن ينسخ من الطبيعة أو الحياة صوراً متشابهة متطابقة ، فهو محاكاة وليس نسخاً . والفرق بين المحاكاة والنسخ هو أن الفنان الذى يحاكى الطبيعة يأخذ منهـا ما يجده ملائماً لفنـه ، أى ينتقى أروع مافيها من الآثار ، ثم يسلط عليها قوانينه الفنية فيلم أجزاءها ويعطى لها الوضع المناسب الجميل ، فتبرز للرائى جديدة ضافية فى حلل الجدة والابداع

أما النسخ، فهو صورة طبق الأصل للطبيعة. ولو كان الفن نسخاً للحياة لما أحسسنا بعظمة الفن الأصلية وسحر قوته الدفينة، ولجاء ثقيلاً مضطرباً مشوهاً كالحياة ذاتها. ولما وجدنا فيه هذا الشعور الخفي الذي يسكن آلامنا، ويريحنا من آلام الحياة وعنت الأيام. بل لما اعتبرنا الفن مأوى لنا نلجأ إليه كلما أثقلتنا متاعب الحياة وضقنا بمطالبها ذرعاً، ولما كانت لنا حاجة ماسة اليه.

فلو كان الفنان يقدم لنا جبلا كالجبل الذي نتسلقه، أو نهراً كالنهر الذي نسبره، أو مرعى مخضوضراً قد انتثرت فوقه الأغنام والمواشي، كتلك المراعي التي نراها كل يوم في قرانا، لما اهتززنا لصوره، ولما أدركنا لها سراً أو معنى

ولو كان الفن يصور لنا حادثة يومية، أو عملا من أعمالنا العادية التي نلامسها كل يوم دون أن يخلع عليها شيئاً من شعوره وشخصيته، لما شعرنا بحاجة الحياة اليه، ولما عملنا على نموه وازدهاره واكتفينا بالتاريخ

ولكن الفن لا يقدم لنا كل ما في الطبيعة ولا كل ما في الحياة، ولكنه يختار أروع ما في الطبيعة، وأجمل ما في الحياة، ثم يقدم لنا هذه في شكل رائع جذاب، وفي صورة فنية جميلة

هذا هو السبب الذي من أجله نلجأ إلى الفن ونهرع اليه كلما أثقلتنا الحياة أو ثقلت علينا الطبيعة. فنحن لا نعمل في هذه الحالة أكثر من أن نتخلص من بعض هذه المنغصات أو الأشياء الثقيلة الجافة التي يتجاهلها الفن، ولا يقف عندها أو يأبه لها

والفن لا يختار في الغالب موضوعه من الحياة الظاهرة، أو من تلك المرئيات التي تلوح للعين في كل يوم، ثم تختفي وكأنها لم تكن، وإنما يختار موضوعه من قلب الطبيعة، ويتخذ مادته من لب الحياة

فالفنان العظيم حقاً هو الذي ينفذ إلى الحياة الداخلية، وهو الذي يتغلغل في أعماق الطبيعة، ويقف على كامن أسرارها ويبرزها للعين والحس في صور فاتنة أخاذة

فهو لا يصور كل ما يحس به أو يقع عليه بصره، وإنما يفكر كثيراً فيما يبدعه للناس. فلا يختار إلا ما كان عميقاً في النفس، أصيلا في الطبيعة. وهو في عمله هذا يخالف المدنية كل المخالفة، لأن المدنية تطور للحياة الظاهرية، الحياة الحسية؛ أما الفن فهو تطور لحياتنا الداخلية. فهو يتصل بالقلب الانساني والفكر الانساني، أما المدنية فتتصل بأعمال الانسان وأحداثه في هذه الحياة المائجة الصاخبة. لذلك كان الفن أصيلا في أصوله ثابتاً في جوهره، وكانت المدنية سريعة التغير، كثيرة التباين والاختلاف..

وليس معنى هذا أن الفن جامد محافظ، عدو للتطور، ولكنه في الحقيقة في تغير دائم، وإن خفي عنا مظاهر هذا التغير لعمقه وبعده عن إدراكنا الحسي المجرد...

نظمي خليل

هل تدين الاغريق*

للأستاذ دريني خشبة

لا تحسب أن أمةً من الأمم شذّت عن قانون التديّن فلم تتخذ آلهة تعبدها وتعنو لها ، وتلتمس منها البركات ، أو على الأقل ، إلَـها تفزع إليه كلما مسها ضر ، أو حزبها أمر . والاغريق ، ككل الأمم ، كانت لهم آلهتهم ومعابدهم وقديسوهم . وقد لا نستطيع أن نحصر الأقوال المتضاربة فى حقيقة تدينهم ، وهل كانوا ، كالأمم السامية مثلاً ، يستغرقهم هذا التدين ، ويغمر أفكارهم وأعمالهم ؟

فالمشهور عن الأجناس الآرية أنهم قوم آداب رفيعة وفلسفة ، وبذلك امتازوا من الساميين المتدينين ، ومن المغول وآريّي الهنود المتقشّفين . على أن الأغريق ، من وجهة الدين ، ينقسمون إلى فئتين ، إن لم يكن أكثر ؛ فهذه الطبقة المستنيرة المثقفة ، التى ورّثتنا تلك الثروة الطيبة من الشعر والأدب والفلسفة والتاريخ والفنون ، قد كان لها وجهة نظرها الخاصة بالنسبة إلى الدين . فلم يكن هوميروس مثلاً يعتقد فى آلهة اليونان مثل ما يعتقد هِسْيود ؛ ولم يكن پندار كذلك ، يعتقد ما يعتقده أرفيوس أو تؤمن به الشاعرة سافو . وقد أثبت البحث أن هوميروس كان ينظر إلى هذه الجمهرة الكبيرة من أرباب اليونان ، وربّاتهم ، كما ننظر نحن إلى أشخاص درامية ازدحمت بها الميثولوجيا اليونانية ، وقدسها الشعب ، فرأى أن يستمد منها هذا الخيال الحلو الساذج ، ليكوّن منه مادة ملاحمه ، وليُضْفى من هذا الخلود السماوى ، على فناء تلك البشريات الهالكة ؛ ولم يثبت أنه آمن بشىء منها . وذلك عكس ما ثبت من إيمان هسيود ، واحترامه الشديد لجميع الأرباب اليونانية . نقرأ ذلك فى مواضع كثيرة من قصيدته الخالدة (الأرجا Erga) ومن درّته العجيبة (الثيوجونية Theogony)

* رداً على ما وجهته الينا الآنسة ا . ش . فهمى — أسيوط من أسئلة عن طريق الرسالة بمناسبة (أساطير أغريقية) والكلمة ملخصة عن فصل من كتاب عن الأدب اليونانى يظهر قريباً

بل إن من الأغريق من أنكر هذا التهريج الميثولوجى ، وكفر بكل الثيوجونية اليونانية ؛ وهذا يوريپيدز فخر أدباء اليونان وشيخ شعرائها ، قد كان من أشد الملحدين سخرية بمعتقدات الناس الدينية قاطبة

والشاعر الدرامى أسخيلوس قد حاول فى إحدى روائعه المدهشة (پرومثيوس المصفّد) أن ينقد هذا الكمال المطلق الذى يضفيه قومه على كبير الآلهة زيوس ؛ بل هو يتهمه بالقسوة والوحشية وعدم الميل إلى ما ينفع العالم ؛ ويضرب لذلك أمثالاً طريفة مما جاء فى الأساطير القديمة ، كأسطورة پاندورا ويو[1] . ثم هذا صولون العظيم يلحد بزيوس ويجدّف فيه تجديفاً يشبه السباب ، فيقول فى الجزء الأول (ص ٣٢) : « إن الله حقود حسود ، وهو مشغوف أيما شغف بارباك الناس وترويعهم !)

على أننا محاولون هنا أن نثبت المعتقدات الشائعة بين العامة ، وهى الفئة الثانية ، فى هيلاس (اليونان) قبل القرن السادس (ق . م) . تلك المعتقدات التى مهما قيل فيها ، لم تخرج عن كونها ألواناً من الديانات البدائية الساذجة ، التى تشبه كثيراً مما دانت به الأمم الجاهلية

ولقد دلت الاستقراءات التاريخية على أن قدماء اليونان كانوا قوماً خائفين ، يخشون الآلهة ، ويرقبونها فى كل أعمالهم ، وكانت الظواهر الطبيعية توحى إليهم بأحلام لاهوتية لايستطيعون الافلات من ربقتها ، فكانوا يقيمون الهياكل الضخمة باسم القوى التى يزخر بها الكون من رياح وشمس وقمر ونجوم وبحار ... وكانوا يقيمون التماثيل الرائعة لآلهتهم فى تلك الهياكل ، ويوكلون بها كهنة يؤدون الشعائر الخاصة بكل منها ، ويتقبلون القرابين والضحايا التى يتقدم بها الشعب المتدين البرئ فى كثير من المناسبات

ومن الأغانى والتراتيل الدينية التى تركها لنا الشاعر الغنائى أرفيوس ، نعلم أن عبادة ديونيزوس كانت ذات شأن كبير بين الغالبية العظمى من قبائل الأغريق . وديونيزوس هو إله النماء والخضرة ، وموسمه حين تنضر الحقول ، وتكتسى سندس

(١) سننشر هاتين الأسطورتين قريباً

القمح ، وتزدهر البساتين فتتفتح عن أفواف الورد ، كان موسم الرخاء والمرح ، وعيد الخير عند سائر اليونانيين ؛ لذلك تواضع المؤرخون على تسمية هذا اللون من ألوان العبادات (بعبادة القمح) ، ولما كان الثابت أن أحداً من الهيلانيين لم يعبد القمح بالذات فنرى أن هذه التسمية مجازية ، وأن من الخير للتاريخ أن نعرفها باسمها الحقيقي ، الذي هو (عبادة ديونيزوس) . وقد نشأت هذه العبادة ، أول ما نشأت ، في (إلزيس) Eleusis ، إحدى قرى (أتيكا) ، حيث كانوا يعتقدون أن أم القمح (أي حبة القمح :) وابنها (أي ساق القمح !) يتفضلان على الناس كل شتاء ، فيخرجان من بطن الأرض ليعم الرخاء وينتشر الخير . . .

وقد انتقلت عبادة باخوس ، إله الخمر ، من تراقيا إلى الجنوب ، ثم ما برحت تنتشر وتستفيض ، حتى تمازجت على مر الأيام بعبادة ديونيزوس . وصارت هذه (التثنية) ذات اعتبار كبير ولاسيما بين العامة . وصار هذا الآله المركب : «ديونيزوس - باخوس ! » هو رب القمح . . . والخمر . . . وإله الحقل . . . والكرم !

ومن دراسة الأدب الأغريقي في الأسكندرية وروما ، نعلم أن ديونيزوس - باخوس كان ذا شهرة مستفيضة في المهاجر اليونانية

أرفيوس ومذهبه : « الأرفزم »

ويسوقنا البحث في ديانة الأغريق إلى الكلام عن أرفيوس الشاعر الديني ، الذي تعتبر تراتيله في الشعر اليوناني كمزامير داود في العهد القديم ، ولأرفيوس ضريب قديم يدعى موسيوس Musæus قد يكون أشعر منه ، وأعلى في دولة الآداب كعباً ، ولكن - للأسف - لم يصلنا من آثاره ما نستطيع به الكشف عن شخصيته ، ولذا نشير اليه ، دون أن نعرض له بشيء . وحسبنا أن نذكر أن مؤرخي الأدب اليوناني يختلفون أشد الاختلاف حول أشعار أرفيوس ، وأكثرهم يرجح أن طائفة كبيرة من هذه الأشعار هي لموسيوس ، ونرجو أن يوفق الكاشفون من رجال الآثار إلى شيء يلقي النور على هذه الناحية المعتمة من تاريخ الأدب اليوناني

ولقد كادت ملاحم هوميروس وهسيود تكسف هذه التراتيل الدينية وتغمرها ، بل كادت تفقدها هذه القدسية التي يكنها العابد المتزمت لكل ماله علاقة بأربابه . وزاد الطين بلة ، تلك الفلسفة الخبيثة التي حملها الايونيون معهم حين غزوا بلاد الأغريق . فهي قد جرأت الكثيرين على التشكك في صحة معتقداتهم ، وغلا البعض فركن إلى العقل والعلم في النظر إلى الحياة والكون ، وما يزدحمان به من ظاهرات

بيد أنه حدث خلال القرن السادس قبل الميلاد ، من الأحداث اليونانية داخل البلاد وخارجها ، ما شجع الشعور الديني ، وقوى الأواصر بين الشعب وآلهته ، بعد إذ كادت تنحل وتتفكك على أيدي هؤلاء الملاحدة من شيعة الفلسفة الأيونية . ذلك أن الحروب المستمرة التي مزقت أوصال البلاد ، وسقوط مدينة الترف وبلهنية العيش (سيباريس) Sybaris ، أغنى المدن الأغريقية على خليج تارنتوم الايطالي ، وإفلات مدينة نينوى من أيدي اليونانيين . . . كل ذلك حفز الشعور الديني ، وابتعث المعتقدات القديمة في صدور الدهماء والعامة ، فذكروا آلهتهم ، وخيل لهم أن ما حل بهم من ضنك ، إنما سببه إعراضهم عنها ، وانشغالهم بما هو أدنى ! ؟

ومن ثمة ، عمرت الهياكل ، وارتفعت فيها الأصوات بتراتيل أرفيوس ، ولهج الشعب المهيض بهذه المزامير يلتمس فيها عزاء وتسلية . وسرعان ما انتشر مذهب جديد أطلق عليه مذهب (الأرفزم) — نسبة إلى أرفيوس — هو لون طريف من عبادة ديونيزوس يؤمن أتباعه بالثواب والعقاب في الدار الآخرة ، وأس إيمانهم هو الاعتقاد بتجسد التثنية المركبة من الآلهين (ديونيزوس — زجريوس) . وزجريوس هذا هو ابن زيوس من البتول (!) كوريه ؛ وقد حدث أن التيتان [1] قد حنقوا على زجريوس فقتلوه ، فغيظ أبوه (زيوس) وسلط عليهم الصواعق حتى أبادهم ؛ وعاد فاستولده من إحدى بنات حواء (سيميليه) Semelê ، فعاش كما يعيش الناس ؛ وإن يكن قد بلغ مرتبة الآلهة وهو بينهم ، ثم رفعه أبوه إلى السماء [2] ، حيث صار فيها السيد الصمد ، والآله الأوحد

(١) Titans هم بعض أبناء وبنات (أورانوس) السماء وجي (الأرض) في الميثولوجيه — وهم مردة جبابرة

(٢) ربما يذكر القارئ هنا عيسى عليه السلام

ولقد ظل (ديونيزوس ـ زجريوس) صاحب الشأن الأعظم فى الديانة اليونانية ، وتنوسى رب الخمر باخوس ، أو على الأقل ، تضاءلت أهميته ، لما كان يشاع عن عُباده فى تراقيا من الفضائح المخزية ، والموبقات التى كانت تنخر كالسوس فى أخلاق الشعب ، وتصدع آدابه . ذلك أن كل فرد من عباد باخوس كان لزاماً عليه كطقس من طقوس هذه العبادة الخمرية ، أن يستبيح عرض واحدة من عابداته ، اللائى كن يطلق عليهن لقب (ميناد) Maenad ، فاذا كان الليل ، وبدأت الحفلات الدينية ، انطلقت الشهوات المكبوتة ، وتدفق دم الدعارة حاراً فى عروق هؤلاء وهؤلاء ، وراحوا يمارسون أحط ألوان البغاء باسم الشعائر الدينية ؛ وكثيراً ما كان يعتدى على أعراض الحرائر ، فلا يستطيع الزوج أو الأب أو الأخ دفع المنكر عن عرضه ، لأن ذلك كان من صميم شريعة باخوس ! !

لهذا ، اعتبرت شريعة ديونيزوس ـ زجريوس ، منبع الطهر الروحى ، والتهذيب الصوفى الجيل ، وحافظت على مكانتها ، كديانة عامة لليونان ، منذ قبيل القرن السادس (ق . م) إلى مابعد القرن الرابع . وكان لها قديسوها وعلماؤها ، بل وأنبياؤها أيضاً ، إن صح أن نطلق هذه التسمية فى تاريخ الديانة اليونانية ؛ ولقد كانت الغالبية ـ حتى من العلماء والأدباء ـ تتناول أبحاثها فى الأرفزم بكل تأدب واحتشام . وشذ أفلاطون وحده ، عند ما ثار ضد ما كانت تبيحه هذه الشريعة ـ أو قل هذا المذهب ـ من الغفران وقبول التوب ، لمجرد طقوس تافهة يقوم بها أحد العصاة الآثمين

وكما يطلق العامة فى العالم الاسلامى لقب (واصل) أو (صاحب سر) على كل من زكت نفسه ، وطابت سريرته ، وصفا ما بينه وبين الله ، من المسلمين ؛ وكما يفعل مثل ذلك إخواننا النصارى ؛ وكما يذهب الى هذا النحو ربيون من اليهود وأحبار ، فكذلك كانت سنة اليونانيين ؛ فكل من تعمق فى عبادة ديونيزوس ، واستبحر فى تحصيل شريعته ، وكان مع ذلك تام التُقى ، شامل الورع ، ارتفع إلى طبقة باكيس كما يرتفع المخلصون من نُساك الهند إلى مرتبة (مهاتما) . ويبدو أن هذه تقاليد قديمة تغلغلت فى المذاهب الحديثة التى نشأت فى هيلاس بعد القرن السادس (ق . م) . آية ذلك أن كل من كان يستبحر فى عبادة باخوس Bacchus يصبح باخس Bacchos ، وكل من كان يخبت للآلـه (كيبيب) إلـه فرجيا ، يصير كيبيبُس Kybêbos وقد انتقلت هذه السُنة إلى أتباع مذهب الأرفزم ، فأصبح كلٌ من حوارييه يحمل لقب أرفيوس . . .

ويمثل ما تدر أخلاف الرزق ، السهل الميسر ، على (واصل) المسلمين ، وأحبار اليهود ؛ فكذلك كانت القرابين والضحايا والزكوات تقدم بكثرة هائلة ، ومن جميع طبقات الشعب ، إلى الباكيس والباخس والكيبيبس والأرفيوس من رجال الكهنوت اليونانى . وكانت هذه الأعطيات والمنح ، تقدم فى مناسبات غريبة ، لاتختلف عما هو شائع بيننا اليوم . فهذا يريد الاستفسار عن حلم رآه ، وذلك يطلب وصف دواء لعلة استعصت على نطس الأطباء ، وثالث يطلب نبوءة عما تنتهى اليه شدة حلت به ، إلى آخر هذه العلل والأسباب

وإلمامة عجلى بأشعار ماقبل التاريخ ، فى الأدب اليونانى ، تشعر بمدى ما كانت متأثرة به من شتى المذاهب الدينية ، وصنوف العبادات الساذجة التى تفعم هذا الأدب القديم . وأثارة الأرفزم شديدة الوضوح فى هذه الأشعار ؛ وأشعار أرفيوس خاصة ، تشبه عندنا أشعار عمر بن الفارض ، وهى ترتيلات كان يرسلها الناظم إلى أربابه سلاماً فى سلام ، اسمع اليه يتناجى :

« أدعوك يا هيكاتيه يا ربة الطرق
« يا حامية مفترق الشِّعاب
« يا باعثة الأمن فى ديجور الظلام
« أيتها المسيطرة على السموات والأرضين والبحار
« يا مؤنسة الموتى فى قبورهم ، ميَّاسة فى الوشائح المعصفرة
« وأنت يا برسيبه ، أضرع اليك
« يا من تؤثرين الهدوء والسكون
« أيتها المليكة التى تقبض على مفاتيح الدنيا
« ألا هلمى ، وكونى معنا ، إذ نسبّح باسمك
« كيما تطهر نفوسنا ، وتنقى قلوبنا

« باركينا يا پرسيبه ، وأفيضى علينا مما فاض به قلبك الكريم من محبة . . . .

ويشك بعض المؤرخين فى انتشار مذهب الأرفزم قبل القرن السادس (ق . م) . غير أن الأناشيد الدينية القديمة تثبت أنه كان لهذا المذهب أشياع كثيرون ومريدون ، بل لقد كانت الآداب تتأثر به فى غير صقع من أصقاع اليونان . وهذا نشيد (الأليمونيس Alemoenis) دليل على ذلك ؛ فلقد ظهر فيه اهتمام الشاعر الذى أنشده بطقوس التطهير ، وشدة حرصه على إيراد ما كان أهل التقى يؤدونه من مراسم دينية ، تستلزمها عملية (تنقية القلب) من الأدران الدنيا ، بالضراعة إلى زجريوس ، رب الأرباب ، المشرف من عليائه على الكون ! والتطهير ومراسمه لب لباب الأرفزم

وقد أثبتت دراسات الأساتذة الألمان كارل مللر ونوك وكنكل وغيرهم أن شاعر كورنثه فيما قبل التاريخ (يوميلوس) كان يدين بالأرفزم ؛ وأنه تبتل إلى ديونيزوس فى نشيده الجميل (يوروپيا) تبتُّلاً ؛ وقد أثبت فى هذا النشيد ما كان فى الأزل من اعتداء التيتان على زجريوس وقتلهم إياه ، وتعرض أيضاً للرؤى والأحلام ، وخاض فى ذكر هيدز (الدار الآخرة)

أما أثر الأرفزم فى الألف سنة التى تبدأ بالقرن السادس ق . م فواضح أشد الوضوح ، وهو على أتمه فى پندار وهيرودوتس وصولون ، ولا يخلو شيخ الملحدين يوربيديز من أثارة منه ، وقد تأثر به كل من سوفوكلس ، وإسخيلوس ، وتأثرت به الاسكندرية كذلك

* * *

أما هذه الكثرة المدهشة من آلهة اليونان ، فقد سلسلها لنا الشاعر هسيود فى منظومته الرائعة (الثيوچونيه)[1] ، وهى بكلمة خاصة أولى لما ؟

دريني خشبة

(١) الثيوچونيه تعنى علم نشوء وتوالد الآلهة

٨ ـ قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

اسپلنزانى Spallanzani

ختـــام حديثه

هدم اسپلنزانى نظرية نيدم التى تقول بأن الأحياء قد تخرج من لا شىء ، قد تخرج من غير آباء وأمهات واحتال على السلطات فمنحته إجازة ونفقة ليسوح فى الشرق ، فـكرمه الشرق وأكرمه ، وعاد فتلقاه امبراطوره ، امبراطور النمسا ، فبلغ بذلك ذروة مجده ، فأسكرته خمرة الساعة وقال : «ما أحلى تحقق الأحلام»

— ٦ —

ولـكن بينما كان اسپلنزانى فى سياحته المجيدة ، يتنقل بين البلدان تنقل الفاتح ، وتستقبله المواصم استقبالها القائد المنتصر ، كانت تتجمع فى جامعة پاڤيا حول اسمه سحابة سوداء . نعم فى جامعة پاڤيا نفسها ، تلك الجامعة التى صنع لها ما صنع ليعيد إليها الحياة . فان أساتذتهـا الأجلاء ظلوا زماناً ينظرون إلى طلبتهم تعزُف عن دروسهم إلى دروسه ، وتتفرق عنهم لتتجمع حوله ، فنال الحقد منهم ، فسنّوا سكاكينهم ، وشحذوا خناجرهم ، واصطبروا يرقبون الفرصةَ حتى أمكنتْ .

جاء اسپلنزانى إلى متحف پاڤيا فوجده خالياً ، فقام يجمع له التحف وينتقى له من أحضان الطبيعة كل نادر مُعجِب ، فاحتمل المتاعب ، ولقى المصاعب ، وواجه الأخطار ، حتى جعل هذا المتحف حديث أوروبا كلها . ولـكنه كذلك جمع لنفسه بعض الشىء ، وحفظ ما جمع فى بيته العتيق باسكنديانو . فذات يوم ذهب القسيس ڤُولتا Volta[1] إلى اسكانديانو ، وكان من أعدائه وحساده ، فاحتال حتى دخل منزله وتسلل منه إلى متحفه الخاص ، وأخذ يشمشم فى أركانه ، وإذا بابتسامة للشر سوداء تعلو شفتيه ، فانه وجد بهذا الركن وعاء ، وبهذا طائراً ، وبذلك سمكة ، وقد حملت جميعها البطاقة الحمراء لجامعة پاڤيا . وخرج ڤولتا يتخبّأ فى طيات عباءته السوداء ، وفى طريقه إلى داره أخذ يدبر المكيدة لاسپلنزانى ، واجتمع بالأستاذين إسكارپا Scarpa وأسكوپولى Scopoli ، وما كاد اسپلنزانى يعود من سياحته فيخطو عتبة داره ، حتى كان هؤلاء الثلاثة الاشراف قد فتحوا كُوّة من جهنم فاندلعت ألسنتها فى أوروبا تعلن فضيحة صاحبنا للأمم ، فما تركوا رجلاً نابهاً من رجالاتها ، ولا جماعة من جماعاتها إلا بعثوا اليها بكتاب يتهمونه فيه بسرقة متحف پاڤيا ، ويقولون إنه خبأ ما سرقه فى متحفه الخاص باسكنديانو

وفى لحظة أحس صاحبنا دنياه العظيمة تتقوّض حوله ، حتى ليسمع تصدّع حيطانها وانهيار بنيانها . وفى دقيقة وجد جنّته البهيجة تتصوّح ، حتى ليرى زهرها الجميل يذبل ، وريح ريحانها تحول ؛ وأخذ يحلم يقظان ، فخال أنه يسمع اليوم ضحكات رجال مجدّوه بالأمس ، وشماتة خصوم قهرهم شر قهرة بحقائقه وتجاربه ، حتى خال أن « القوة النباتيةَ » التى قَضَى عليها قضاء مبرماً تنبعث من قبرها وتخرج من كفنها

ولـكن لم تمض عليه أيام حتى تماسك ، وأحس أن الأرض لا تزال جامدة تحت قدميه . بالطبع كانت الفضيحة لا تزال قائمة ، وألسنة الأعداء لا تزال صاخبة ، ورحى الحرب لا تزال دائرة ، ولـكنه تجمّع بعد تشتّت ، وتَبَوْأر بعـد تشعّع ، فألصق ظهره إلى الحائط ، وامتشق سيفه ، وصاح فى القوم بالنزال . ذهب عنه الصبر الذى صحبه فى صيد المكروب ، وغابت عنه اللطافة والظرافة اللتان زانتا كُتبه إلى ڤلتير ، وأصبح كالنمر الغاضب ، وأخذ يدفع النار بالنار ! وجاءه دهاء السّاسة فطالب تعيين لجنة للتحقيق فأُجيب طلبه

وعاد إلى پاڤيا ، ولعله وهو فى الطريق إليها كان يتهيّب دخولها ، ويدبّر أمره لينسل فيها انسلالاً ، حتى لا يرى عيون أحبابه الأقدمين تزورّ عنه ، وحتى لا يسمع شفاههم تهمس فيه بالشر ، ولـكنه ما كاد يصل إلى أبواب پاڤيا حتى وقعت أعجوبة ،

(١) هو الفيزيائى الايطالى الشهير ولد عام ١٧٤٥ ومات عام ١٨٢٧ تعين أستاذاً للطبيعة فى پاڤيا عام ١٧٧٩ . وهو صاحب المخترعات والبحوث الـكهربائية المعروفة . ومن اسمه اشتقت وحدة الجهد الـكهربائى أى الڤلت وتكشف لنا هذه القصة اسفافاً ومكائد كان يجدر بالعلماء أن يترفعوا عنها . ولـكن الانسان هو الانسان كيف كان . وما أشبه الليلة بالبارحة . المترجم

نعم أعجوبة ، فقد تلقاه فعلاً على أبوابها جمّ غفير من تلاميذه مهللين مكبّرين فرحين مرحبين بقدومه ، وقالوا إنهم له ناصرون ، والتفوا حوله فى صراخ وزئاط حتى بلغوا به كرسيه القديم الذى كان يحاضر عليه بالجامعة . وقام هذا الرجل القوىّ ، الذى اعتمد دائماً على نفسه ، واعتز دائماً وأُعجِب بنفسه ، قام فى هذا الجمع الكبير يخطب شاكراً ويعترف لهم بالجميل ، فاذا بصوته يخذله ، وإذا به يرفع منديله إلى أنفه ، وإذا به يجتزىء بأن يقول لهم فى كلمات قليلة وصوت أبّح إنه يقدّر هذا الاخلاص تقديراً عظيما

وانعقدت لجنة التحقيق ، واستدعته هو وخصماؤه إليها . والآن بعد أن عرفت من هو اسبلنزانى تستطيع أن تصور لنفسك العراك الذى تلا هذا اللقاء ، بل المذابح والمجازر . وأثبت للقضاة أن الطيور التى زعموا أنها سُرقت لم تكن إلا طيوراً خسيسة ، ساء حشوها واتسخ ريشها ، فقذفوا بها فى الكناسة قذف النعال البالية . وهى طيور لا تليق بمتحف فى مدرسة بقرية فضلا عن جامعة . وأما الثعابين التى زعموا أنها ضاعت من متحف باڤيا فلم تضع ، وإنما استبدل بها أشياء أخرى من متاحف أخرى ، وكانت باڤيا الرابحة فى هذا الاستبدال . وأما السارق الذى تبحثون عنه فهو ڤولتا ، كبير المتهمين هذا ، فانه سرق من المتحف أحجاراً كريمة وأهداها أصدقاءه . . . .

وبرّأه القضاة من تلك الوصمة ، ولو أن التاريخ اليوم لا يستطيع أن يؤكد كلّ التأكيد أنه لا يستحق ولو قليلاً من الملام . وعزلت الجامعة ڤولتا والمؤتمرين معه شرّ عزلة . وبعث الامبراطور أمره إلى المتخاصمين وأشياعهم أنْ يُقلعوا عن خصامهم ويَعقِدوا ألسنتهم ؛ فان الأمر كان استحال إلى فضيحة عامة شاع خبرها فى أوروبا ؛ وبلغ جدال الطلاب فيها حدّ العنف والاستهتار بالنظم فحطّموا الأثاث بقاعات الدرس ، وجامعات أوروبا أخذت تتسارق الضحك من هذه الجُرْسة التى لم يسبقها مثيل . وأراد اسبلنزانى أن يُطلق آخر طلقة على أعدائه المنهزمين فسبّ ڤولتا بأنه مزمار ذو فوهة كبيرة جوفاء لا يملؤها غير الهواء ، أما الأستاذان اسكاربا وإسكوبولى فأسماها أسماء غاية فى البذاءة يمنع التجمّل من كتابتها . وبعد هذا عاد مطمئناً الى صيد مِكروبه

وعاوده سؤال كان يجيئه مراراً فى السنوات الماضية المديدة التى قضاها فى التحديق إلى حيواناته الصغيرة ، وهو : كيف تتكاثر تلك الحيوانات ؟ انه كثيراً ما رأى الفردين منها متلاصقين ، فكتب إلى بونيت Bonnet يقول : « إنك إذا رأيت فردين من أى نوع متزاوجين ، استنتجت بطبعك أنهما يتناسلان » . ولكن هل هذا التزاوج الذى أراه بين هذه الحيوانات الضئيلة تناسل ؟ لم يُحِر لسؤال نفسه جواباً ، فانه على رعونته فى أمور أخرى ، كان شديد الأناة فى العلم ، حَذِراً فى استنتاجاته حذَرَ « لوڤن هوك » . لهذا اكتفى بأن سجل هذا السؤال على الورق من غير جواب ، ورسم صورة هذه الأحياء أزواجاً كما رآها

وكان لـ « بونيت » Bonnet صديق يدعى صوصير de Saussure وكان رجلاً ذكياً أضاع اسمه الزمان . فلما علم بالذى كتبه اسبلنزانى إلى صديقه قام يدرس كيف تتناسل تلك الأحياء . ولم يمض غير قليل حتى نشر بحثاً مذكوراً إلى اليوم ، يقول فيه إنك إذا رأيت اثنين من هذه الحيوانات متلاصقين فلا تظنن أنهما التصقا ليتناسلا . إذ الواقع الغريب أنهما حيوان واحد ، انشق انشقاقاً فصار حيوانين . وهذه هى الطريقة التى تتكاثر بها هذه الأحياء ، أما الزواج فهى لا تعرف للذائذه طعماً

قرأ اسبلنزانى هذا البحث فطار إلى مجهره ، وهو لا يكاد يصدق ما قرأ ، ولكنه نظر ، وداوم النظر ، فأثبت صدق صوصير . وقام الطليانى إلى دواته يهنئ السويسرىّ تهنئة حارة على ما كشف . كان اسبلنزانى يميل للحرب والخصام ، وكان يميل للكيد بعض الميل ، وكان أمّالاً شديد الأمل ، وكثيراً ما كان يغار من اشتهار غيره من الرجال ، ولكنّ اعجابه بتلك الملاحظة الدقيقة التى أتاها صوصير ، واستغراقه فى جمال تلك الحقيقة التى وجد ، أنساه أمله ، وأنساه غيرته ، فكتب يهنئه بالذى كتب فانعقدت بين اسبلنزانى وصوصير والعلماء الطبيعيين Naturalists فى جنيڤا روابط مبهمة ، ولكنها على ابهامها متينة ، هى نتيجة استشعارهم بأن الجماعة تستطيع أن تتعاون فتكشف من الحقائق الكونية مالا يكشف عنه الأفراد متفرقين ، ونتيجة اقتناعهم بأن صرح العلم لابد لاقامته من بنائين عديدين متفقين على رسمه ورفع حجره وانسجام أوضاعه . وكره هؤلاء العلماء الحرب أولَ

من كَرِه ، فهم أول من صَدَّق الدعوة لائتلاف الأمم لتكون أمة واحدة هم أبر رعاياها

وقام اسپلنزانى بعدئذ ببحث من أمجد الأبحاث التى قام بها فى حياته ، دفعه إليه حبه لأصدقائه السويسريين وإخلاصه لهم ، وكذلك كرهه لشقشقة علمية جديدة شر من تلك الأكذوبة القديمة الشهيرة « بالقوة النباتية » . وحديثُ هذه الشقشقة أن إنجليزياً يدعى « أليس » Ellis كتب يقول : إن صوصير كان مخطئاً ، ويقول إن هذه الحيوانات قد تنقسم أحياناً ، ولكن ليس معنى هذا أنه سبيلها فى التولد والتكاثر ، فان هذا الانقسام إنما يحدث من أن حيواناً من تلك الحيوانات يسبح فى الماء بسرعة كبيرة فيختبط متعامداً فى بطن حيوان مثله فيشقه نصفين . وزاد « أليس » على هذا أن هذه الحيوانات تُولد من أمهاتها كما يولد الناس ، وقال إنه كلما حقق النظر فى تلك المخلوقات ، فى بطون تلك الأمهات ، رأى فيها بناتها لم تُصب بعد ميلاداً ، وكلما حقق النظر فى بطون هذه البنات رأى فيها أحفاداً

فصاح اسپلنزانى لنفسه يقول : « أضغاث حالم ، وتخريف معتوه » ولكن كيف يثبت أنها أحلام ؟ كيف يثبت أنها تخريف ؟ كيف يثبت أن هذه الأحياء تتكاثر بالتناصف ؟ لقد كان عالماً متشبعاً بروح العلم ، يعرف الفرق بين السب والشتم واتهام خصيمه « أليس » بعمى البصر وخرف العقل ، وبين أن ينقض بالحجة الدامغة ما يقوله من اختباط تلك الأحياء فانقسامها أشطاراً

وفكّر قليلاً فواتته الحجة . قال لنفسه : « كل الذى علىّ لأثبت خطأ هذا الجاهل الفَدْم هو أن آتى فى ماء بحىّ واحد من تلك الأحياء لا ثانى له فيختبط به ، ثم أجلس أرقبه فى المجهر حتى ينقسم نصفين ، وبذلك أقطع لسان هذا الثرثار الغبىّ » . وفى الحق هذه طريقة بسيطة للبت فى أحد الرأيين ، بل هى الطريقة الوحيدة لأبطال إحدى النظريتين ، ولكن الصعوبة الكبرى فى استخراج حىّ واحد من هذه الكثرة من الحيوانات . أنك تستطيع أن تفصل الجروَ الواحدَ من مجموعة الجراء ، وتستطيع أن تعزل السمكة الصغيرة من بين أخواتها الكثيرات ، ولكن قل لى بربك كيف تستطيع بيدك أن تُمسك بذيل حىّ من تلك الأحياء المجهرية ، وهى أصغر مليون مرة من تلك السمكة الصغيرة

فاعتزل اسپلنزانى دنياه الزائطة بحفلاتها ومحاضراتها وجماهيرها المعجبة به ، وأخذ يبحث عن طريقة يفصل بها مخلوقاً واحداً من تلك المخلوقات ، مخلوقاً لايعدو طوله بضعَ أجزاء من ألف من الملليمتر ، ويفصله وحده لا ثانى له

ذهب إلى معمله وأسقط قطرةً من ماء تعتلج تلك المخلوقات فيه على قطعة منبسطة من الزجاج الرائق النظيف ، وأسقط إلى جانبها بأنبوبة شعرية نظيفة قطرةً أخرى من الماء النقىّ الخالى من تلك الخلائق . ونظر إلى القطرتين من خلال عدسته ، وجاء بأبرة رفيعة فغمسها بالقطرة الأولى ، ثم خرج بها فى خط مستقيم حتى وصلها بالقطرة الثانية النقية ، وبغاية السرعة صوّب نظره إلى قناة الماء الرفيعة التى وصل بها بين القطرتين ، وابتسم اغتباطاً لما رأى حياً من هذه الأحياء يدخل القناة فى تَخطُّر والتواء . فما كاد يصل إلى القطرة النقية من الماء حتى اختطف اسپلنزانى ريشة نظيفة فقطع بها البرزخ الذى يصل القطرتين . وصاح فرحان جَذِلاً . « إنه حى واحد ، واحد فحسب ، فى هذه القطرة ! يا للنجاح ، ما أحلاه ! نعم مخلوق واحد لا ثانى له يتخبط به على حد قول المأفون المغفّل « أليس » فيقسمه نصفين ! وإذن فلأرقبه لأرى كيف ينقسم ! » . وصوّب عدسته إلى هذا المخلوق الوحيد الصغير فى هذه القطرة العظيمة ، « إنه كالسمكة الفريدة تسكن وحدها الأقيانوس الواسع »

وعندئذ رأى عجباً أىَّ عجب . فان هذا المخلوق ، وشكلُه كالقضيب ، أخذ يدقّ وسطُه ثم يدقّ ، ورهف خصرُه ثم رهف ، حتى لم يصل مقدّمه بمؤخّره غير خيط كنسيج العنكبوت ، وإذا بالنصفين يضطربان ويختلجان ويتلوّيان حتى انفصلا ، فكانا مخلوقين حيّين جديدين انزلقا برشاقة فى الماء انزلاق المخلوق الأول الذى عنه نشآ . نعم كانا أقصر منه ، ولكن عدا هذا فلم يكن بينهما وبينه ما يَميزه عنهما . واستتمتْ الغبطةُ واكتمل العجب بعد دقائق ، فإن هذين المخلوقين انقسما من جديد على النحو الفائت فكانا أربعة

وأعاد اسپلنزانى هذه الألعوبة البديعة عشرات المرات ، وفى كل مرة يجد الذى وجده أولاً . وعندئذ سقط على « أليس »

المسكين بكل ثقله ، سقوط طن من الحجر ، ففرطحه ، وسوّاه بالأرض حتى خفى ، وخفى اسمه من الوجود ، وخفيت خزعبلته الجميلة ، وخفى ما كان حكاه من وجود أحفاد فى بطون بنات فى بطون أمهات من تلك المخلوقات . وكان اسپلنزانى لذاع اللسان ، فقال له : « أنا يا بنىّ ناصح لك أن تعود إلى المدرسة من جديد فتتعلم ألف باء المكروب » وأشار بعد ذلك الى « أليس » فقال إنه أخطأ لأنه لم يقرأ بحث صوصير القيم الرائع باعتناء ، إذ لو فعل لما قام يخترع نظريات فاسدة لا يكون من ورائها إلا قيام العلماء بتكذيبها ، فينفقون الجهد الكثير فى استخراج حقائق من طبيعة معروفة ببخلها وكزازة كفها

إن الباحث العلمى ، الباحث الحق فى الطبيعة ، يشبه الكاتب والرسام والموسيقىّ ، بعضه فنان وبعضه نقاب جامد الشعور بارد النفس . لذلك نجد اسپلنزانى يتخيل الخيالات ، ويتصور أنه بطل مغوار لعهد من الكشف جديد ، ويكتب فيشبه نفسه بـ « كريستوف كولمب » ، وينظر الى عالم المكروب فيخاله عالماً جديداً قائماً بذاته كبعض العوالم ، ويخال نفسه كشافة جريئاً مغامراً قام ببعوث لم تكشف من تلك المجاهل إلا حوافيها . ومع كل هذا لا نجده يذكر مرة أن هذه المكروبات قتالة . لم يرد أن يعمل فى هذا خياله ، ولو أن عبقريته كانت دائماً توسوس له أن هذه الحيوانات العجيبة فى هذه الدنيا الجديدة الغريبة لا بد من علاقة بينها وبين اخواتها الحيوانات الكبيرة من بني الانسان

— ٧ —

وفى أوائل عام ١٧٩٩ ، بينا نابليون يقوم لتحطيم الدنيا العتيقة البالية ، وبينا بيتهوفن Beethoven يقرع باب القرن التاسع عشر بأولى سمفوناته الهائلة — روحان كبيران ثائران يصدران عن روح العصر الثائر الذى أولده اسپلنزانى وأقرانه ، وينطقان عن هذا الزمان بلسانه ، ذاك بمدافعه المتجاوبة ، وهذا بموسيقاه الصاخبة — أقول فى أوائل عام ١٧٩٩ أصاب الصرعُ صاحبنا الكبير صيادَ المكروب

ولم تمض على أصابته ثلاثة أيام حتى كنت ترى هذا الرجل العجيب الهازىء بالموت يخرج رأسه الذى لا يهدأ من بين أغطية سريره ينشد قصائد « هومير » Homer ، ويغنى بشعر « تاسو »(١) Tasso ليضحك أصدقاءه الذين جاءوا ليشهدوا احتضاره . وما كان هذا منه رغم إنكاره إلا صياح الديك الذبيح . وما كانت تلك الأناشيد إلا للموت ، وتلك الأغانى إلا للفناء ، فانه مات بعدها بأيام قلائل

مات العظماء من ملوك مصر فحفظوا أسماءهم لذراريهم بما خلفوا من مومياء فخمة حفظها رجال الجنائز بكل نادر غال من الحنوط . وذهب الأغريق والرومان لكنهم خلدوا سحنهم ، وسجلوا أشباههم فى الحجر ، فى تماثيل يحفها المجد ، ويلفها الوقار . وقضى كثير من عظماء القرون نحبهم ، وبليت أجسامهم ، ولكن بقى منها صور مرقومة بالزيت على القماش تكاد تجرى فيها الحياة . ومات اسپلنزانى فماذا خلف للناس ؟

إن أردت أن تعرف ماذا خلف فاذهب إلى « پاڤيا » ، فستجد له بها تمثالاً نصفياً متواضعاً . وإن أنت أردت أن ترى المزيد منه فسر قليلاً حتى تجيء المتحف ، فادخله ، وإذن فسترى فيه — مثانته . . .

أىّ إرث يتركه إسپلنزانى للدهور خير من هذا ؟ أى أثر أحق من هذا بالتعبير فى إيجاز عن حبه المدله للحقيقة ، هذا الحب الذى لم يقف به عند شىء ، هذا الحب الذى اقتحم التقاليد وضحك للصعاب وهزىء بالأذواق الموضوعة ، وبمراسيم اللياقة المصنوعة

علم أن مثانته مريضة ، فكنت تسمعه يقول فى خفوت لأصحابه وهو يحتضر : « إذن أخرجوها من جسمى عند موتى ، فلعلكم تكشفون فيها عن حقيقة جديدة غريبة فى أمراض المثانات » . هذا روح اسپلنزانى وهذا هو روح قرنه ، القرن الثامن عشر . روح استخفاف واستهتار . روح تشوّق وتشوّف لكل مجهول . روح المنطق البارد القاسى فى برودته ، قرن لم يفض على الخلائق بكثير من الكشوفات العملية النافعة ، ولكنه القرن الذى مهد لفاراداى Faraday وبستور Pasteur وأرانيوس Arrhenius وأميل فيشر Emil Fischer وأرنست رذرفورد Ernest Rutherford لينجبوا ويمجدوا ويعملوا فى جو حر طليق

احمد زكى

(١) شاعر طليانى ولد عام ١٤٩٣ ومات عام ١٥٦٩ . وأشهر قريضه الغنائى

١٩ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

فأجال فينا سقراط النظر ، كما هى عادته ، وقال باسماً : إن دليل العقل ناهض فى جانب سمياس ، وإن فى مهاجمته إياى لقوة ، فلماذا لا يتصدى منكم لاجابته من هو أقدر منى ؟ ولكن قد يحسن بنا قبل أن نجيبه ، أن نصغى كذلك لما يريد سيبيس أن يناهض به الدليل ـ وسيكون لنا من ذلك للروية متسع ، فاذا ما فرغ كلاهما من الحديث ، وبدا قولهما مستقيماً مع الحقيقة سلمنا لهما ، وإلاّ ، فلنا أن نؤيد الجانب الآخر ، وأن نناقشهما . قال : تفضل إذن فحدثنى ياسيبيس ، أى مشكلة صادفتك فأتعبتك ؟

قال سيبيس : سأحدثك ـ إنى لأشعر بأن التدليل لم يتزحزح عن موضعه ، فأنا مستعد أن أسلم بأن قد قام الدليل القاطع الوافى جداً ، إن جاز لى هذا القول ، على وجود الروح قبل حلولها فى الصورة الجسدية . ولكنى أرى أن بقاء الروح بعد الموت لا يزال يعوزه الدليل ، ولست أعترض فى ذلك بما اعترض به سمياس ، لأنى لا أريد أن أنكر أن الروح أقوى من الجسد وأطول بقاء ، فعقيدتى أن الروح تسمو على الجسد فى كل هذه النواحى سمواً بعيداً . وقد يخاطبنى الدليل فيقول : حسناً إذن ، فلماذا تقيم على ارتيابك ؟ إذا رأيت أن الأضعف يظل باقياً بعد موت الانسان ، أفلا تسلم بأنه يتحتم أيضاً أن يبقى ما هو أطول بقاء خلال هذه الفترة نفسها ؟ ويجمل بى الآن أن أستخدم المجاز ، كما فعل سمياس ، وسأطلب اليك أن تنظر فى استعارتى لترى هل جاءت ملاءمة لموضوعها . أما المثل الذى سأسوقه فهو مثل نساج قديم ، يموت فيزعم بعض الناس بعد موته أنه لم يمت وأنه لابد أن يكون حياً ، ويستشهد على ذلك بالعطاف [1] الذى نسجه بنفسه وارتداه ، والذى لا يزال جيداً متيناً ، ثم يمضى فيسأل المرتاب من القوم . هل الأنسان أطول بقاء أم العطاف الذى يُستخدم ويُرتدى ؟ فاذا ما أجيب بأن الأنسان أطول جداً فى البقاء ، ظن أنه قد أثبت بذلك يقيناً بقاءَ الأنسان الذى هو أطول بقاءً مادام الأقصر بقاء لا يزال باقياً . ولكنى أرجو أن تلاحظ ياسمياس أن ليست تلك هى الحقيقة ، وليس بخافٍ على النـاس أن من يتحدث بهذا إنما ينطق هراء ، فحقيقة الأمر أن هـذا النسّاج قد ارتدى ونسج كثيراً من هذه الأعطف ، ولئن كان قد أفنى كثيراً منها وعمّر بعدها ، إلا أن آخرها قد ظل بعد فنائه باقياً ، ولكن لا ريب فى أن هذا أبعد جداً من أن يقوم دليلاً على أن الأنسان أقل من العطاف شأناً وأشد ضعفاً ، غير أنك تستطيع أن تعبر عن علاقة الجسد بالروح باستعارة كهذه ، فلك أن تقول بحق إن الروح باقية ، وإن الجسد بالقياس اليها ضعيف قصير الأجل ، فقد يقال عن كل روح أنها تُبْلى أجساداً كثيرة ، وبخاصة إذا امتد بها أجل الحياة ، لأنه إذا كان الجسد يتحلل ويفنى فى حياة الأنسان فالروح لا تنى تنسج لنفسها لباساً جديداً ، وتصلح ما قد أصابه البلى ، فطبيعى إذن أن تكون الروح مرتدية آخر أثوابهـا حينما يدركها الفناء ، وذاك الثوب وحده هو الذى سيبقى بعـد فنائها ، ولكن الجسد بدوره ، إذا ماتت الروح ، سيكشف آخر الأمر عن ضعف طبيعته ، فلا يلبث أن يدركه الفناء ، ولهذا لن أركن إلى هذا الدليل برهاناً على بقاء الروح بعد الموت ، لأنه إذا سلمنا فرضاً حتى بأبعـد مما تؤكد أنت أنه فى حدود الممكن ، فارتضينا ـ فضلاً عن اعـترافنا بوجود الروح قبل الميلاد ـ أن أرواح طائفة من الناس لا تزال موجودة بعـد الموت ، وأنها ستظل موجودة ، وأنها ستولد وتموت كرة بعد أخرى ، وأن فى الروح قوة طبيعية ستقاوم بها حتى تولد مرات عدة ـ فقد نميل مع هذا كله الى الظن بأنها ستعانى من آلام الولادات المتعاقبة رهقاً قد ينتهى بهـا آخر الأمر الى السقوط فى إحدى مرات موتها ، فتفنى فناء تاماً ، وربما خفيت عنا جميعاً هذه المرة التى يموت فيها الجسد ويتحلل ، والتى قد تؤدى بالروح إلى الفناء ، فليس يمكن لأحد منا أن تكون لديه عن ذلك خبرة [1] فان صح

---

(١) Coat

(١) يقول إننا حتى لو سلمنا بما يزعمه سقراط من أن الروح تظل باقية بعد انفصالها عن الجسد ، ثم تعود إلى الحياة مرة ثانية وثالثة ورابعة . فلا يبعد أن تهن وتضعف من هذه الولادات المتكررة فيصيبها الموت الأبدى =

هذا ، زعمتُ أن من يثق فى الموت فانما يثق وثوقاً غاشماً ، ما لم يكن قادراً على التدليل بأن الروح لا تخضع للموت أو الفناء إطلاقاً ؛ أما إن كان عاجزاً عن إثبات ذلك ، فمعقول ممن يقترب من الموت أن يخشى فناء الروح فناء تاماً عند انحلال الجسد

ـ فلما سمعنا منهم هذا القول ، أحسسنا جميعاً بالكآبة ، كما لاحظ بعضنا إلى بعض فيما بعد ، وأحسب أنه قد داخلنا الاضطراب والشك ، لا فيما سلف من دليل فحسب ، بل فى كل ما قد يجئ به الدهر من دليل ، لأننا ، وقد كنا من قبل نؤمن إيماناً راسخاً ، قد رأينا ذاك الايمان تتزعزع دعائمه ؛ فاما أننا لم نكن قضاة صالحين ، وإما أن العقيدة لم تقم على أساس صحيح

اشكراتس ـ إنى لأشاطرك إحساسك فى هذا ـ حقاً إنى لأشاطرك إياه يافيدون ، وقد هممتُ ، وأنت تتحدث ، أن أستجيب نفس السؤال . أى دليل يمكن أن أومن به بعد اليوم ، فماذا عسى أن يكون أقوى فى الاقناع من تدليل سقراط ، وها هو ذا قد هبط إلى الجحود ؟ فياطالما فتننى فتنة عجيبة هذا المذهب القائل بأن الروح هى الأنسجام ، ولم يكد يرد ذكره حتى عاودنى بغتة ، لأنه عقيدتى الأولى . وجدير بى الآن أن أعود فألتمس دليلاً آخر ، يؤكد لى بأن الروح لا تموت مع الأنسان عند موته . فأرجو أن تنبئنى كيف مضى سقراط فى الحديث ؟ هل بدا كأنما يشاطركم احساسكم الكئيب الذى ذكرت ؟ أم أنه استقبل الاعتراض هادئاً ، فأجاب عنه جواباً وافياً ؟ أنبئنا بما وقع دقيقاً ما استطعت

فيدون ـ أى اشكراتس ، إنى ما فتئت معجباً بسقراط ، ولكنى لم أعجب به قط أكثر مما فعلت وقتئذ ، أما أنه استطاع الجواب فيسير ، ولكن ما أدهشنى أولاً هو ما تناول به كلمات الشبان من وداعة وغبطة واستحسان ، ثم سرعة إحساسه بما أحدثه الحوار من جرح وما واتته به لباقته من فنون العلاج .

= فى مرة من مرات انفصالها عن الجسد ، دون أن نعلم نحن عن موعد هذا الموت الأبدى ، لأننا لا نعلم هل هذه الروح المعينة فى هذا الجسد المعين قد بلغ منها الأعياء مبلغاً سيؤدى بها الى الفناء التام عند فناء جسدها الذى تحل فيه أم أنها لا تزال بها بقية من قوة تستطيع أن تعيش بها حتى تعود إلى الحياة فى جسد آخر ، ونحن لا نعلم ذلك لأنه لم تسبق لنا تجربة نتعلم منها هذا الأمر . وبناء على ذلك لا يستطيع سقراط مثلا أن يجزم بأن روحه باقية بعد موته لأنها قد تكون فى هذا الدور الأخير وهو لا يعلم

مثله فى ذلك مثل القائد الذى يستجمع جيشه وقد انهزم واندحر ، ويحفز جنده أن يتابعوه فيعودوا إلى ميدان الحوار

اشكراتس ـ وكيف كان ذلك ؟

فيدون : ستعلم منى ، فقد كنت قريباً منه ، جالساً إلى يمينه على مقعد وطئ ، أما هو فقد استوى على سرير يرتفع كثيراً عن مقعدى ، وقد أخذ يداعب شعرى ، ثم مسح رأسى بيديه ، وصفف شعرى على عنقى وقال : أى فيدون ! غداً ستُجَذّ هذه الجدائل الجميلة فيما أظن

أجبت ـ نعم يا سقراط ، إنى أظن ذلك

ـ إنها لن تُجَذّ لو أخذت بنصحى

قلت ـ وماذا عساى أن أفعل بها ؟

أجاب ـ إنى وإياك سنقطع اليوم جدائل شعرنا ، فلا نرجئها إلى غد ، لو كان هذا الحوار ليموت ، واستحال علينا أن نرده إلى الحياة مرة أخرى . وإنى لو كنتك ، ولم أستطع أن أثبتَ ضد سمياس وسيبيس ، لأقسمت ألا أرسل شعرى قط ، كما يفعل الأرجيفيون ، حتى أثير المعركة من جديد وأدحرها

(يتبع) زكى نجيب محمود

٤ ـ الأمير خسرو

الشاعر الهندى الكبير

للسيد أبى النصر أحمد الحسينى الهندى

تتمة

إن الشعر الراق يشمل طموحاً غامضاً مائلاً إلى اللانهائى ؛ ومع هذا يتخذ لذلك من هذا العالم المادى وسيلة ، فهو يعطى صوتاً لصمت الغرائب التى تبرزها أسرار هذا العالم . وبناء عليه يكون بيت واحد من ذلك الشعر يحتوى على قيادة روحانية وفكرة سامية مؤثرة فى النفس إلى قرار سحيق ، وهو ما لا تجده فى صفحات من النثر ، وذلك لأن من لوازم النبوغ الشعرى الراق بصيرة نافذة من ظواهر الأشياء إلى صميمها . فبها يجمع الشاعر الفيلسوف المفلق الكامل حقيقة الأشياء الأصلية فى مجموع كامل جديد مؤثر غاية الأثر ، وبها يدرك ويرى من مطالع الحق والجمال فى هذا العالم مالا يراه العامى . فاذا عبر عما يدركه ويراه برموز واصطلاحات مادية فهو لاينويها بالذات ، بل ينوى بها تلك الحقيقة العليا الخالدة التى طالما طمحت اليها روحه ونفسه كلما أدرك مظاهر تلك الحقيقة المتنوعة ومناظرها المختلفة فى هذا العالم . وهذا الصنف من الشعر هو شعر فلسفى روحانى . ولقريحة خسرو فى هذه الناحية انتاج واسع لأنه كان صوفياً كبيراً . نذكر الأبيات الآتية منه قال :

جان زتن بردى ردرجانى هنوز   دردها دادى ودرمانى هنوز
آشكارا سينه أم بشكا فتى   همجنان در سينه ينهانى هنوز
ملك دل كردى خراب ازتيغ ناز   واندرين ويرانه سلطانى هنوز
هردو عالم قيمت خود كفته   نرخ بالا كن كه ارز انى هنوز

« أخذت روحى من جسمى ولازلت أنت فى روحى ، وأعطيتنى الآلام ولازلت أنت الشفاء »

« شققتَ صدرى على الاعلان ، ولازلت أنت مخفياً فيه كما كنت »

« خرّبتَ أقليم القلب بسيف الدلال ، ولازلت أنت السلطان فى هذا الخراب »

« قلت ثمن نفسك العالَمان . ارفع الثمن فانك لاتزال رخيصاً »

لم يكن خسرو نابغة فى الشعر فقط ، بل كان أيضاً موسيقياً بارعاً ، فقد برع فى الموسيقى إلى أن نال لقب « نايك » وهو لقب قل أن ناله أحد غيره فيما بعد من المسلمين . فقد نقل عنه المؤرخ دولت شاه فى كتابه « تذكرة الشعراء » بيتين قال فيهما :

« أنا سيد الموسيقى كما أنا سيد الشعر . أنا كتبت ثلاثة مجلدات فى الشعر(١)

لو كان ممكناً تحويل جميع ما ألفته من الألحان الموسيقية الى الكتابة لبلغ الى ثلاثة مجلدات أيضاً »

وحقاً قال أمير خسرو لأنه كان صاحب ذكاء حاد فوق المعتاد ، يملك ملكة اختراعية فى الشعر وفى الموسيقى فبلغ فيهما ما لم يبلغه أحد . واختراعاته وتآليفه فى الألحان والنغمات لاتزال رائجة وشائعة بين الهنود إلى اليوم ، وهو الذى اخترع « سيتار » الآلة الموسيقية التى تشبه تقريباً القيثارة العربية والتى لاتزال تهز الأفئدة بنغماتها الشجية فى محافل الهند وأفراحها الى اليوم طالبة الشهادة على كمال عبقرية مخترعها

قد ذكر صاحب « مانك سهال » (وهو كتاب فى تاريخ الموسيقى صنفه فى عهد الامبراطور محيى الدين أورنك زيب عالمكير وقد ترجم إلى الفارسية باسم « راكى درپن ») كثيرا من النغم والألحان التى اخترعها أمير خسرو ، وذكر حكاية تدل على براعة خسرو فى الموسيقى وهى أن السلطان علاء الدين خلجى دعا مرة « نايك جوبال » الموسيقى الوثنى الشهير حينئذ للاطلاع على كماله فى الفن ، وكان له ألف وستمائة تلميذ إذا أراد الخروج من بيته حملوه على أكتافهم فلبى دعوة السلطان وأسمعه الألحان والنغمات ستة أيام متوالية ، وكان خسرو يسمعها مختفيا . وفى اليوم السابع تصدى له خسرو وادعى أن جميع الألحان والنغم التى سمعها السلطان هو مخترعها وأعادها واحدة واحدة باتقان وإجادة أكثر من جوبال فتحير الرجل فى كمال خسرو وبراعته فى الفن

---

(١) لعله قال هذين البيتين حين بلغ جميع ماصنفه فى الشعر ثلاثة مجلدات لأن له عشرات من المجلدات فى الشعر . ونحن قد ذكرنا فى مقالنا الثانى ما يوجد منها الآن فى الهند وهو أكثر من ثلاثة . وأيضاً يستدل من قوله هذا أن كتابة الألحان الموسيقية بالرموز كما تكتب الآن لم تكن معلومة حينئذ

كانت براعة خسرو فى الموسيقى أحرزت له شهرة واسعة لدى عامة الناس أيضاً وعلى الأخص السيدات والأولاد منهم ، إذ كانوا يحفظون نغماته وألحانه وأناشيده ، ويغنونها فى أفراحهم ومحافلهم ولم يكن يكتب نشيداً إلا كان يخترع له لحناً خاصا . وقد اخترع أصنافا كثيرة من الألحان والأناشيد التى لم يكن لها وجود قبله ، وعلى الأخص باللغة الأردية أذكر منها « أنميل » « مكرنى » و « دوسخنة » و « دهكوسلا » الخ وكلها شائعة بين العامة الى اليوم

كان خسرو يرتجل الشعر والأناشيد بداهة . ومن حكايات ارتجاله أنه عطش مرة فذهب الى بئر كان أربع سيدات يخرجن منها الماء فاستسقاهن . فعرفته واحدة منهن وقالت للأخريات : إن هذا خسرو : فسألته : هل أنت خسرو الذى يغنى كل واحد أناشيده وألحانه ويسمع ألغازه وأنميله ومكرنيه ؟ فأجاب نعم . فقالت واحدة منهن : اعمل لنا نشيداً واستعمل فيه كلمة « كهير » (أى المهلبية) وقالت الثانية : استعمل فيه كلمة « شرخا » (أى المغزل) أيضا ، وقالت الثالثة : كلمة « دهول » (أى الطبلة) أيضا ، وقالت الرابعة : كلمة « كُتّا » (أى الكلب) أيضا فقال لهن : اعطينني الماء أولاً فانى أموت عطشا ، فقلن له : لا نعطيك الماء حتى تقول النشيد المشتمل على كلماتنا : فارتجله خسرو ؛ وهذه ترجمته ولكن لم يبق فيها جماله الأصلى :

إن المهلبية طبخت بالاعتناء
واستعمل فيها خشب المغزل وقودا
ثم جاء الكلب وأكلها
وشغلكم ضرب الطبلة
وأنا عطشان ، اعطينني الماء

كان الأمير خسرو صوفياً كبيراً ورعاً صالحا تقيا . قال المؤرخ (ضياء الدين برنى) وهو من أصدقائه فى كتابه تاريخ فيروز شاهى : « إنه مع حصافته العقلية ، وذكائه الشاذ ، وعلمه الواسع كان صوفيا من الطبقة الأولى ، فكان يصوم تقريباً كل يوم ويصرف أكثر أوقاته فى تلاوة القرآن وفى اقامة النوافل والفرائض من الصلاة ، وكان خليفة فى الطريقة لسيدنا الشيخ الولى الصوفى مولانا « نظام الدين أولياء » قدس الله سره ، وإنى لم أر خليفة يعتقد اعتقاداً قوياً فى شيخه مثله »

إن من أهم مبادئ الصوفية التحرز التام من جرح عواطف الناس ، وقتل أمانيهم وبذل أقصى المجهود فى قضاء حاجاتهم . وكان الشيخ نظام الدين قدس الله سره يقول : إنه لا عمل يساوى يوم القيامة إدخال السرور على قلوب الناس ، وفى حديث عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : الخلق كلهم عيال الله ، فأحب الخلق الى الله من أحسن الى عياله . فكان خسرو من أكبر العاملين بهذا الحديث ، لذلك كان محبوبا عند الجميع . وله فى ذلك حكايات كثيرة منها : أنه عند ما كان يرجع من السراى الملكية كل يوم الى البيت يرجع راجلا ، لأنه كان يحب البساطة والسذاجة فى العيش ؛ وهو أيضا من لوازم الحياة الصوفية ، فيمر بدكان عجوز تسمى شمّو فتقدم له كرسيا ونرجيلة ، وتطلب منه تشريفها ولو بدقيقة . فلكى لا يجرح عواطفها كان يقعد عندها ولو دقيقة . ومرة قالت له : ياسيدى خسرو ! آلامك وبلاؤك على رأسى إنك تقول آلافا من الغزل وتؤلف النغمات والألحان وتصنف الكتب . أما تؤلف شيئاً باسمى حتى يذكر اسمى أيضاً بفضلك ؟ فقال لها حاضر ياسيدتى شمو وارتجل نشيدا فيه اسمها . فخلد اسمها بذلك النشيد الى اليوم

كان خسرو لين الجانب رقيق العواطف قطع جميع مدارج التصوف ومنازله ، فكان صاحب حرقة قلبية دائمة فى حب الله . وقد قال فيه شيخه مولانا نظام الدين أولياء قدس سره : « فى يوم القيامة كل واحد يفتخر بشىء ، ونفخر بحرقة هذا (ترك الله) » . ولعل خسرو أشار إلى هذا حين قال البيت الآتى :

خسرو من كوش براى صواب
تاتو شود « ترك خداى » خطاب

« ياخسرو اجتهد فى الحق ليكون لك لقب «ترك الله» »

انتهى البحث **السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى**

ملحوظة : سقطت جملة من مقالة « الأمير خسرو » فى ص ٤٦٣ السطر الرابع من العمود الأول . والصحيح كما يلى : فكان يتقن التركية لأنه كان من أصل تركى ، والعربية لأنها كانت لغة دينه ، والفارسية لأنها كانت لغة الحكومة الرسمية حينئذ . كذلك حصل خطأ فى جملة وردت فى ص ٥٠٨ فى السطر الثامن من العمود الثانى وصوابها : ان الشعر هو ماله أثر أخلاقى . . . .

يا شمس

للأستاذ فخرى أبو السعود

ياليتنى كالشمس فى عليائها لم يُرضها إلا المحلُّ الأرفعُ
لم تمسس الدنيا ولا أقذاءها لكن إليها من عَلٍ تتطلع
تحوِى جوانبها بنافذِ نظرةٍ وتُفىء غيهبَها بنورٍ يَسطع
وتَظَلُّ تَشْهَدُ من شؤون أنيسها ما مرَّ من أمرٍ وما يُتوَقَّع
وتَقلُّبَ الأحوالِ فيما بينهم فى أعصُرٍ تمضى وأُخرى تَتبَع

* * *

يا ليتنى كالشمس فى تَدْآبِها ليست بمكْثٍ فى مكان تقْنَع
تطوى الفضاء محلَّةً فمحلَّةً وتغيب عن أفق السماء وتطلع
موصولةً رحلاتُها فلها هنا مستقبل ولها هناك مُودِّع
مأنوسةَ الأسفار يَصْحَبُها السَّنَى وطريقُها بين العوالمِ مَهْيَع
عرَضَتْ جمالَ الكون فى غدواتها ورواحها مُرتادةً ما يُمتِع
إن خلفت حسناً بديعاً لم تزل حتى يلوحَ لها أحبُّ وأبدَع
كم شارَفَتْ نهراً يفيض ووادياً الزَّهر فى أفنانه يتضوَّع
وطوى عبابُ اليمِّ آيةَ ضوئها فرأى محيَّاها اليبابُ البلقع
وأجازَتِ البيدَ القِفار فطالعت غاباً ألِفَّ به البلابلُ تسجع

* * *

ياليتنى كالشمس فى إخلادها لا الخوف يعرونى ولا بىَ مَطمع
لا المادحُ الشادى يَخِفُّ بمهجتى طرَباً ولا لهجاء هاج أجزع
أتدبَّر الدنيا وأغنم حُسنها وأجوب أطراف الحياة وأذرع

* * *

ياشمس إنَّ الشعر يسمو بى إلى أوْجٍ لديكِ هو الأعزُّ الأمنع
يَسْرى خفىٌّ ندائه فيُهيبُ بى ويرِنُّ فى أذنى صداه فأسمع
أسمو على الدنيا به وأودُّ لو أنى إلى أقذائها لا أرجع

فخرى أبو السعود

من أدب السودان

ما كان أوفقه لو ضمنا أدب

لشاعر السودان الأستاذ عبد الله عبد الرحمن

نبَّهتَ منّا فؤاداً غير سَهْوانِ وجئتنا بحديث ممتع دانِ
(محمد بن جلال)(1) قد نطقتَ بما نُحسُّه من أحاسيس ووجدان
دعوتَ للأدب العالى يحرّكُ من بنى العروبة من مصر وسودان
وصحت بالقائلين الشعر بينكم أليس عندكم السودان ذا شانِ؟
ما للمسارح لم تخرج روايته وللرواية منه ألف ميْدان!
وكيف لم يهزز الكتّابَ ما عصفت به الحوادث فى سرٍّ وإعلان؟
مضى يُثابر لم يفطن له أحدٌ كأنما القومُ من هَيِّ بن بيَّانِ(2)
فقلت لله مصر شدَّ ما عُنيت بكلِّ فعلٍ عظيم النفع إنسانى
وتلك قولة حق ما أبرَّ وما أحقَّها أنْ لها يسعَى الشقيقان

* * *

ما كان أوفقَه لو ضمَّنا أدبٌ له الكنانة والسودان ركنانِ
ينمّ عنا وعنكم غير مختلق لا كالذى عبَّ من زورٍ وبهتان
يقلِّم الظفر من ساعٍ لتفرقة ويقصم الظهر من داعٍ لهجران
والناس من بات يشقى من جهالته حيًّا – سيشقى بها فى العالم الثانى

* * *

كم للطَّبيعة فى السودان من فِتَنٍ وكم لأطيارها من سحر ألحان
ما أكثر الملهماتِ الشعر فيه وما أمدَّها للأديب الهادم البانى
الرمل عند ضفاف النيل تحسبه لُعس الشفاه جلاها بيض أسنان
وظلمة الليل فى العتمور(3) ملهمة خوالد الشعر ترويها الجديدان
والسَّرح والسِّدر والجميز كارعة من صيِّب القطر أو من فيض غدران
ما للكهارب سلطان على قمر ولا على الشمس سلطان لبنيان

(١) الأستاذ محمد محمود جلال صاحب المقال المنشور فى عدد الرسالة ٨٣ (حول ١٩ يناير) (٢) علم لمجهول النسب والعين

(٣) العتمور: الصحراء الواسعة بين وادى حلفا وأبى حمد، لا ماء بها ولا نبات، يقطعها القطار فى إحدى عشرة ساعة

كلٌّ تسيل على الآفاق غرّته … فتملأ النفس من حسن واحسان
وللحوادث تلعابٌ بساحتها … تملى علينا شروداً ذات ألوان

إذا مررت من أمْ دُرْمان فى كررى (١)
ألقى عليك القوافى الخالد الفانى
من كلّ من صدقت فى الله همّته … وراح لم يحتمل ضيماً لإنسان

* * *

كم بالجزيرة (٢) أو سهل القضارف من
مزارع حُلوة المرآى وأقطان
وحِلّة ذهبت فى جودها مثلاً … ومنزل فيه تُتْلَى آى قرآن
أللهأكبر! تدوى فى مساجدها … فتعمر القلب من دِينٍ وإيمان
والقوم سُمرٌ وجوه يُسرعون إلى … ما ينبت العزّ من إكرام ضيفان

* * *

وفى أبا (٣) حيث تلقى الأرض كاسيةً
والطير خاطبةٌ من فوق أغصانِ
تَهشّ للزائريها كلَّ آونة … وتملأ القلب من رَوْحٍ وريحانِ
هناك فى كردفان أىُّ مُتدَّعٍ … للطرف فى بارة أو أرض خِيران
حيث البداوة فى أجلى مظاهرها … والابل طالعة من بين كثبان
ما أجمل الريف مصطافاً ومرتبعاً … وغادة الريف فى عين وغزلان
الخدّ لم ترْعَ موسى (٤) فى جوانبه … والجيد من حسنه عن زينة غانِ

* * *

فان يكن شعب بوّان (٥) ازدهى نفراً
ففى البطانة (٦) كم من شعب بوّان

(١) كررى : جبال شمال مدينة أم درمان كانت فيها الموقعة الفاصلة بين جيوش المهدية وجيوش الحكومة الحاضرة

(٢) الجزيرة : الأرض التى بين النيلين الأبيض والأزرق ، والقضارف بين أحد مراكز كسلا شرق السودان

(٣) جزيرة أبا فى النيل الأبيض ، بها مزارع السر السيد عبد الرحمن المهدى ، وبها متعبد المهدى

(٤) السودان تتخذ الشلوخ وهى افتصاد فى الخدين طلباً للجمال ، وهذا فى الحواضر أما البوادى فلا تتخذه

(٥) شعب بوان كان أحد متنزهات الدنيا بفارس

(٦) البطانة الأرض التى بين النيل الأزرق ونهر أنبرا ، وهى مراع حسنة ذات مياه وأشجار ، بها من العرب بنو ذبيان والشكرية والبطاحين والخوالدة والحمران ، وهى الآن فى نظارة الشكرية

إذ تقبل الأرض أعقاب الخريف بها
بكل وجهٍ إلى الفنّانِ فنّانِ
والصيد نافرة حتى إذا أنِست … أوفت على نجوة ترنو بفتّان
والضان والمعز والأنعام تابعة … مواقع الغيث قطعاناً لقطعان
وللحداة حداء كله كرم … فيه الاباء وفيه نُصرة العانى

* * *

وسامر الحى من غيد وفتيان … بين البيوت وفى أعطاف وديان
فى كل ليل تحاجيهم عجائزهم … بابن النمير (١) وسوبا وابن سلطان
وتارة يرهف الفتيان سمعهم … إلى نوادر أجواد وفرسان
(وابن المحلق) لم تبرح حكايته … فى الناس يسردها أشياخ حُمران
يا قبر تاجوج (٢) حيّاك الحيا ومشى
بصفحتيك شَذَى ورد وريحان
إنى أميل إلى الأشعار يبعثها … حسٌّ قوىّ وأقلى الفاتر الوانى
وفى البلاد وفى ماضى أُبوتنا … فخر — وإن لم تكن تُعنى باعلان
وكم بتاريخها من قصة عجب … جدّ الحكيم ولهو الوادع الهانى
فان يكن بات فيها الحرّ يصهرنا … فللحرارة يُعزَى فضل شجعان

* * *

اذا «الرّسالة» أدّت من رسالتها … ولم تُجرّر علينا ذيل نسيان
رعى لها أدب السودان خدمتها … ونالت الشكر من قاصٍ ومن دانِ

(الخرطوم) عبد الله عبد الرحمن

(١) ابن النمير وابن سلطان من الأقاصيص الخرافية فى السودان . وسوبا مدينة جنوبى الخرطوم على النيل الأزرق كانت عاصمة مملكة النوبة العليا ، وهى المعروفة فى التاريخ بمملكة علوة

وكل هذه المواقع قد شاهدتها البعثة التجارية الاقتصادية التى زارت السودان فى شهر يناير من هذه السنة ، وقد شهدها الدكتور محجوب ثابت الدنقلاوى مولداً المصرى سكنى

(٢) تاجوج وابن المحلق قصتهما فى الحب مشهورة كقصة قيس وليلى وقد وضعت لها رواية باللغة العامية السودانية دوبيت ومثلت كثيراً بالسودان

القصص

من أساطير الاغريق

بين أبوللو وكيوبيد [١]

للأستاذ دريني خشبة

عصى الناس ، فى قديم الزمان ، سيد أرباب الأولمب ، السند الأعظم ، المهيمن على ملكوت السموات والأرض : زيوس . ومع ما اشتهر به من واسع الحلم ، وطول الأناة ، وجم المغفرة ، فانه لم يشأ أن يعد للعالم فى حبل الغواية ، لدرجة إنكارهم لذاته ، والحادهم فيه ، وكفرهم به ؛ فأقسم ليهلكن حرثهم ونسلهم ، وليقطمن دابرهم أجمعين ! فأطلق الرياح الجنوبية الهوجاء ، وأرسل السحب تتدجى كقطع من الليل البهيم ، وأذن للأرض فتشققت ينابيع وعيوناً ، ثم انهمرت الأمواه من فوقهم ، وتفجرت من تحت أرجلهم ، وطغى الموج يجرف الدور ويُعفِّي الآثار . وفى أيام قلائل ، كان الطوفان يغمر وجه الأرض ، ولم يكن ثمة إلا بحر خضم عظيم

وهلك الناس جميعاً ، وشفى زيوس موجدته عليهم ، ثم بدا له أن يعيد مياه الحياة إلى مجاريها ، فأطلق الرياح من عقالها ، فهبت فى شدة وعنف ، وأخذت ترشف ماء الطوفان ، تعاونها فى ذلك مركب أبوللو . . . يوح [٢] العظيمة . وبدأت الأرض تجف ، وشرع بساطها السندسى الجميل يبدو قليلا قليلا ، حتى ازدهرت المروج ، وأينعت الخمائل ، وسمق الدوح ، واهتزت الرُّبى ، وأخذت السهول زخرفها . وبدا له مرة أخرى أن يخلق أناسي يعمرون الأرض الجديدة ؛ فما كاد يفعل حتى ظهرت حيوانات بحرية هائلة ، جعلت تزحف من الماء إلى الأرض ، فتهلك الخلق الجديد . وكان أشد هذه الحيوانات وطأة ، وأكثرها فتكا ، ذلك التنين البحرى الهائل ، الذى كان يصمد للعصبة القوية من الرجال فيفنيها عن آخرها ؛ حتى ضج الناس واستغاثوا ، وجأروا بالدعاء إلى زيوس الرحيم ، فرق لهم وحدب عليهم ، وأرسل أعز أبنائه من زوجه لاتونا : أبوللو ، فأنقذهم من التنين (پيثون) بسهامه التى سددها اليه حتى أرداه



أبوللو يقتل پيثون

وانثنى ثملا بخمرة النصر ، مزهوًّا بما رفع الناس إليه من صلوات وابتهالات ، وبينما هو راق إلى سماء الأولمب ، إذا أخوه كيوبيد بن أفروديت يصيد الظباء فى غيضة لفَّاء ، ويلهو باجتناء الثمر ، ويمرح بين أفواف الزهر ، كالمستهتر الخالى . فأراد أبوللو أن يناوشه ، فقال له : « كيوبيدَ ياابن أفروديت ! أنت هنا تصيد الظباء الضعيفة ، وتريش سهامك إلى أطلائها [١] المفزوعة ، ولا تجسر على اقتناص الأفعوانات البحرية المرعبة التى تفتك بعباد أبينا زيوس ؛ ومع ذلك لا تفتأ تفاخر الآلهة بسهامك التى لا تطيش ، ورمياتك التى لا تخيب . كيوبيد الصغير ! يجمل بك أن تنزل لى عن قوسك الرنان ، وسهامك الذهبية ، أو أن تحد

---

(١) لقد طغت أسماء الميثولوجيه الرومانيـــة على الميثولوجيه اليونانية طغياناً كبيراً ، مع أن الثانية أصل للاولى ، وأبوللو هو الاسم الرومانى للاله فوبوس اليونانى ، وكذلك كيوبد هو إيروس بن أفروديت (ڤينوس) وقد آثرنا الأسماء الرومانية لشهرتها فحسب . (٢) الشمس

(١) أبنائها

من كبريائك ، وتأتى إلىّ كل يوم أعلمك كيف تكون الرماية ، وكيف ينبغى أن تسدد السهام ! »

وغيظ كيوبيد من هذا التقريع الذى لا مُسَوِّغ له ، وذلك التفاخر الأجوف الذى لا فائدة منه ، ولا طائل وراءه ، فعبس وبسر ، وتجهّم وزمجر ، وقال فى عبارة ملتهبة ، وأسلوب مشبوب : أبوللو يا ابن لاتونا ! ! كان الأولى بك أن تذكر كيف عذبت حيرا (١) فى سالف الأيام أمك وأذلتها ، فتقنى حياء ، وتتوارى خجلا ، ولا تملأ الهواء بمثل هذا الفخر الكاذب ! أبوللو ! أنت تتيه بسهامك وتُدل ؛ وتدعى أنك تقنص بها الأفعوانات البحرية ، على حين أصيد الظباء ، وأقتل الأطلاء ، ألا فلتعلم أننى أمهر منك ألف مرة فى تسديد السهام ، وأقوى فى توتير القوس ، وإن كنت بعد حَدَثاً صغيراً . على أننى أنذرك ، أنت يا أبوللو يا ابن لاتونا بسهامى التى سأجربها فيك قريباً ! ! »

فضحك أبوللو ملء شدقيه ، وقال : بخ بخ يا كيوبيد بن أفروديت ! ليس هكذا يخاطب سيد الشمس أبوللو ! ولكن يبدو لى أنك مُتعب من طول ما أخذت نفسك به من الصيد فى هذه الغيضة ، وأحسبك قد أعياك ظبى نافر فأخرجك عن طورك ، خصوصاً وأفروديت تنتظرك لتُعد الشّواء ! . . أنت ستجرب سهامك فىّ . . . . فىّ أنا . . . . ! »

فقال كيوبيد : « فيك أنت . . . . فيك أنت يا أبوللو ابن لاتونا . . . . وسترى . . . »

وامتلأت أسارير أبوللو بضحكة ساخرة ، وفصل مستهزئاً

وشرع كيوبيد يدبر انتقامه ، ويرسم له الخطط التى ينال بها من أبوللو ، فلا يستطيع أن يفلت ، وكان يحمل كنانتين ، يحتفظ فى الأولى بسهامه الذهبية التى يصمى بها القلوب فتملأها حباً وصبابة ؛ وفى الأخرى بسهامه الرصاصية التى يصيب بها القلوب فيفعمها بغضاً وكراهية . . . . ونثر كنانتيه وانتقى من كل واحدة سهماً حاد الشَّباة مزدوج السنّان ، ثم انطلق فى الأدغال يفكر ويُدبّر ؛ ويمم شطر غدير قريب يطفئ منه غُلته ، فرأى القينة الحسناء (دفنيه) متجردة من ثيابها ، جالسة كالقطاة على عُدوة الجدول ، تداعب الماء بقدميها الجبيبتين ، وتظللها صفصافة ممتدة الفئ وارفة ، والأطيار من فوقها تغنى لها . فقال كيوبد ، متحدثاً إلى نفسه : « فرصة نادرة ان أفلتها . . هذه (دفنيه) الجميلة تستنقع من القيظ ، وهى وسيمة قسيمة ، بارعة الحسن ، تامة المفاتن ؛ لابد أن أسدد سهماً رصاصياً إلى قلبها الصغير فيمتلئ كراهية وبغضاء . . . ويحسن ألا أشعرها بوجودى حتى أصمى قلبها . . . فلأختبئ هنا . . . »

وتوارى خلف دوحة كبيرة ، وثبت السهم الرصاصىّ فى مكانه من القوس ، ثم أطلقه فى قلب دفنيه ؛ وما كاد يفصل حتى انخلع قلب الفتاة من الذعر ، وأسلمت ساقيها للريح تعدو بين الأيك ، صارخة من ذلك الثلج الذى ذهب بحرارة فؤادها

وقصد كيوبيد إلى حيث أبوللو ، وكان قريباً من دفنيه ، فسدد إلى قلبه السهم الذهبى فأصماه . وتلفّت أبوللو ينظر ماذا أصابه ، وحدث أن كانت دفنيه منطلقة تعدو إذ ذاك ، فلمحها وسرعان ما جن بها جنوناً . لقد ملأه سهم كيوبيد حباً ، كما ملأ سهمه الرصاصى دفنيه بغضاً . . .

لقد كانت دفنيه أول من وقع عليه نظر أبوللو بعد إذ ملأه سهم كيوبيد حباً ، فهام بها ، وشعر نحوها بهوى ممض وبرْح قديم ، كأنه برح آلاف من السنين ؛ وكذلك كان أبوللو أول من وقع نظر دفنيه عليه بعد إذ أفعمها سهم كيوبيد كراهية ، فأبغضته ، وشعرت بسم تنفثه عيناه فى قلبها حينما رأته

أفلح كيوبيد إذن فى الفتك بأبوللو ، حين أوقعه فى أحبولة الهوى ؛ ورداه فى شرك الغرام ، بهذه الفتاة الكارهة المحنقة ، دفنيه ! أفلح كيوبيد ، وتبع أبوللو رياليه يتذلل ويتضرع . . . ويبكى كما يبكى الآدميون . . وهو سيد الشمس ، ورب الموسيقى ، وقانص الأفعوانات كما دل على كيوبيد وافتخر !

انتصر كيوبيد إله الحب ، صاحب القوس الذهبية ، كيوبيد الطفل ، ذو الجناحين ، على أبوللو سيد الشمس ، صاحب القوس والوتر المُرِدّ ! !

إن الحرب لم تبدأ ، حين بدأت ، بين أبوللو بن لاتونا ، وكيوبيد بن أفروديت ، بل هى قد بدأت بين البغضاء والحب ، والقِلى . . . والهوى !

انطلق أبوللو فى إثر دفنيه المذعورة يبكى ويتذلل ، ويحاول

(١) يشير كيوبيد الى أسطورة رائعة سننشرها قريباً ، وحيرا هى أولى زوجات زيوس

اللحاق بها . . . ولـكن هيهات ! لقد كانت تُمعن فى الهرب ، كلما جد هو فى الطلب ؛ ولقد كانت تنظر اليه كأنه قاتل أبيها . . وخانق أمها ! . .

وصاح أبوللو ضارعاً : « دفنيه أيتها العزيزة ! قفى أرجوك ! تمهلى أتوسل اليك ! الشوك يجرح قدميك المعبودتين يادفنيه ! أوْهِ ! رويدك ياحبيبة ! لا تنطلقى هكذا فقد يؤذيك اندفاعك ! فيم أنت مذعورة هكذا ؟ قفى ؛ فأنا أبوللو . . . قفى ! . . »



أبوللو يعدو ضارعاً وراء دفنيه

ولـكن دفنيه لا تجيب إلا بنظرة القنص ، ولفتة الواجف المراش ، وتجد فى الهرب . . فيقول أبوللو : « قفى يادفنيه ! قفى ولك نصف ملـكى ! بل لك الشمس كلها إذا وقفتِ ! أنا رب الموسيقى سأغنى وأصدح لك ! سأطربك بقيثارتى الذهبية بعد أن أغسل لك قدميك فى كل ليـلة (! !) ، سأطير بك فى أرجاء السموات ! ستكون لك القصور فى جنـة الأولمب ! سأمنحك الخلود يادفنيه ! أحبك ! أستحلفك بزيوس إلاَّ ما وقفت ! مالك هيمانة على وجهك هكذا ؟ هل أُخيفـك ؟ هل أزعجك إلى هذا هذا الحد ؟ . . . ويلاه ! »

ولا تبالى دفنيه ، بل تعدو وتعدو . . .

ويضيق أبوللو بغصـته ذرعاً ، فيلجأ إلى جبروت الآلهة ، ويبدى سلطان السماء ! ويصيح صيحةً هائلة ، فيكون سد منيع فى طريق دفنيه !

فيقول أبوللو وقلبه يضطرب من طول الاعياء : « فيم تهربين منى يادفنيه ! ألم تعبديني مرةً وتقدمى الضحايا باسمى إلى كهنة الهيكل ؟ هأنذا أبوللو المعبود ، أرجوك وأتوسَّل إليك ! ماذا تريدين بعد هذا ؟ لقد بلغت من أبوللو منزلة لم تبلغها ربة من قبل ! لقد فضلتك على كليمين ، زوجتى المعبودة ، وأجمل عرائس البحر ، وأم طفلى المحبوب فيتون ! ! فيتون أسرع الآلهة بعـد أخى هرمز ، سآمره يكون خادماً لك ! إنه يقتنى أغلى المركبات ، ولديه من الصافنات الجياد أغلاها ؛ ستركبين معه فتطوفين العالم فى ساعتين ، وترين ما بين الشرق والغرب فى لحظتين ، لو رضيتِ ! دفنيه ! أرجوك يادفنيه ! إننى أبداً ما بكيت بمثل ما أبكى لك ، وأذرف الدمع بين يديك : حنانيك يادفنيه فقـد سحقت قلبى بكبريائك ، وأذللت نفسى بخيلائك ! »

وكان فعل السهم الرصاصى فى قلب دفنيه قد خف ، ووقفت الغادة حائرة مترددة مما تسمع ، وكانت عيناها تُرَّتين بعبراتٍ حبيسة . ولـكن كيوبيد ، المختبئ فى عساليج الـكروم القريبة كان يرى ويسمع ، فلما شاهد من ضعف دفنيه وقرب تسليمها ، تناول قوسه ، وانتقى سهماً مسنوناً من كنانة الأسهم الرصاصية وسدده إلى قلبها ، فصرخت المسكينة صرخة داوية ، وهبت فى وجه أبوللو تقول : « إليك عنى أيها المسخ ! تنحَّ ! أبغضك ! أكرهك ! أغرب عنى ! أنت أنجس من التيتان[1] ، والأم من شارون[2] ، إذهب ! لا أطيقك ؛ انظر إلى هـذا الغدير لترى الشرر ينقدح من مقلتيك ، والدخان يصَّاعد من منخريك ! كريه . . كريه . . شائه أنت أيها الوحش . . »

وكذلك كان فعل السهم الذهبى قد شارف أن يبطل فى قلب أبوللو . . وكاد الالـه العظيم يخلص من هذا السحر العجيب ، فيسحق دفنيه ، لولا أن تنبه كيوبيد ، فأصابه بسهم ذهبى آخر ، فجن جنونه ، وتجدد حبه ، وتألب به هواه . . . فصرخ صرخة راجفة ، وأشار إلى السد فزال عن طريق دفنيه ، فانطلقت تعدو . . وتعدو . . . وانطلق هو فى إثرها يتوسل . . ويذرف أغلى العبرات ! !

لقد كانت دفنيه تطوى الطريق كأنها فـكرة شاردة فى رأس شاعر ، ولقد كان أبوللو يقتص آثارها كأنه الـكوكب السيار

(١ ــ ٢) التيتان هم أبناء وبنات زيوس من المردة وقتلة ابنه زجريوس وأبغض الأبالسة إلى الآلهة ؛ وشارون هو حارس الجحيم

منجذباً إلى نجم كبير ! وكان كلما سرق اللمحة من ساقيها الجميلتين التهب قلبه بحبها ، واشتعلت نفسه بالرغبة المُلحة فيها ، وانجذبت روحه إليها . . . . يالكيوبيد ! ويالسهامه . . . . الذهبية . . . والرصاصية ، على حد سواء ! !

وتعدو دفنيه حتى تكون عند حفافى النهر العظيم الذى أقام زيوس والدها الكبير إلـهاً عليه ، فتصرخ قائلة : إنقذنى يا أبى ! خلصنى من هذا الوحش الذى يدعى أنه أبوللو الكريم ! إنه يعدو من ورائى . . . خلصْنى منه . . . إنى أبغضه . . . يا أبى . . . يا أبى . . . »

وينشطر الماء ، ويخرج أبوها ، إلـه النهر ، فيرى أبوللو مقبلاً ، فيعرفه ، ولكنه يرق لابنته ، ويقسم ليخلصنها من سيد الشمس ، فيغرس قدميها فى الشاطئ ، ويحتفن من الماء بيديه ، وينثرها به ، بعد أن يتلو عليه من تعاويذه ؛ ويقف أبوللو مشدوهاً ، موزع اللب ، ينظر ويرى !

لقد تحولت دفنيه ، فى لحات ، إلى شجرة باسقة من أشجار الغار ، وأخذت الخضرة تينع فى أغصانها ، بين حيرة أبوللو وشدة تعجبه !

ووقف الإلـه العظيم يبكى ويا ويح للعاشق المخبول !

ثم تقدم فبارك الشجرة ، وسقاها من دمعه ، الذى كان من خلائقه الكبر ! وانصرف محطم النفس ، معمود القلب ، كاسف البال ... ولقيه كيوبيد ، فسأله الخبيث : «أين سهامك التى أرديت بها الأفعوانات يا أبوللو بن لاتونا ؟ » فقال : « كيوبيد ! اشفنى مما ألم بى ! » فقال كيوبيد : « بهذا السهم الرصاصى أشفيك ! »

وتلقى أبوللو السهم فى قلبه عن طواعية فبرئ مما به ، ولم يعاد كيوبيد بن أفروديت بعدها !

دريني خشبة

البريد الأدبي

كلود فارير عضو الأكاديمية الفرنسية

فى ٢٨ مارس جرى فى الأكاديمية الفرنسية انتخاب طال انتظاره على كراسيها الخالية ؛ فانتخب ثلاثة من الأعلام الأحياء مكان ثلاثة من الأعلام الذاهبين ؛ هم كلود فارير مكان لوى بارتو ، وجاك بانفيل مكان بوانكاريه ، وأندره بليسو رمكان الأب بريمون . والثلاثة من أقطاب الكتابة والأدب ، فان كلود فارير قصصى كبير ، وجاك بانفيل مؤرخ وصحفى بارع ، وأندره بليسور مؤرخ ورحالة وصحفى كبير اشتغل حيناً سكرتيراً لتحرير مجلة « العالمين » الشهيرة . ولكن أشد الخالدين الجدد اتصالا بالأدب هو بلا ريب كلود فارير

وكلود فارير ضابط بحرى سابق ؛ وكان مدى أعوام طويلة زميلاً لبيير لوتى وصديقه الحميم ؛ وقد تأثر بحياة البحر كما تأثر بها لوتى ؛ وتأثر بعبقرية صديقه واتجاهه الأدبى . ولما توفى لوتى سنة ١٩٢٣ استمر فارير يحمل رسالته وينهج نهجه ، فيؤثر البحر ورجاله ، والموانى وأحياءها ومنتدياتها بكتابته ؛ ولبث مثل لوتى يهيم بالمناظر والبيئات والشخصيات الغريبة

وكان أول ظفر أدبى لكلود فارير فى سنة ١٩٠٣ إذ صدر كتابه الشهير « خان الأفيون » وهو مجموعة قصص وصور تمثل حياة المدمنين فى الشرق الأقصى ؛ وكان فارير يومئذ ضابطاً برتبة ملازم فى إحدى الدارعات الحربية ؛ وفى سنة ١٩٠٥ ، أخرج قصته الكبيرة : « المتحضرون » ، فنال بها جائزة أكاديمية « جونكور » ، وذاع اسمه بين أقطاب الأدب ، وبعد ذلك استمر فارير فى الكتابة وإخراج القصص الصغيرة والكبيرة ، ومن قصصه الكبيرة : « الرجل الذى قتل » ، وهى على ما يرى بعض النقدة أعظم قصة لفارير ، ومنها : « الحرب » و « منزل الأحياء » و « الآلهة الأخيرة » و « المحكوم عليهم بالاعدام » و « الرجال الجدد » وغيرها ؛ وله عدة مجموعات من القصص الصغيرة أشهرها : « سبع عشرة أقصوصة بحرية » و « أحمد باشا جمال الدين » و « قصص الأباعد والأقارب » و « أربع عشرة أقصوصة عسكرية » وغيرها . ولفارير قطع مسرحية أيضاً منها « توما لا نليه » و « قبيل الحرب »

وكلود فارير مثل صديقه بيير لوتى من أقطاب المذهب الابتداعى « الرومانتيزم » وقد تأثر مثل لوتى بأميل زولا . وقد كتب فارير مثل لوتى أيضاً كثيراً عن تركيا والمجتمع التركى وخلاله متأثراً فى ذلك بسحره الشرقى القديم . وقد كان مثل لوتى يدافع عن تركيا القديمة ، ويحاول أن يخرج أبدع صورها للغرب ، وما زال فارير متعلقاً بهذا السحر الشرقى القديم ، يأسف لما حل بتركيا القديمة من تبدل وتطور ، ويرثى هذا المجتمع القديم الساحر ، بقصوره الشاهقة ، ونسائه المحجبة ، وبذخه وبهائه ، ولا يرى فى تركيا الحديثة سوى صورة ممسوخة لا هى استبقت القديم ، ولا بلغت فى الحديث شيئاً . ولفارير عدة كتب وقصص عن تركيا فى آخر عصور السلاطين

وأما أسلوب فارير فهو ساحر ، وهو أقرب إلى البساطة وعدم التكلف ، وهو أشبه الأساليب بأسلوب جى دى موباسان ، ومع هذه البساطة الجمة تراه ينفث المتاع والسحر فى قارئه . ثم هو أسلوب مكشوف فى بعض النواحى ، بمعنى أن فارير يذهب فى التصوير والوصف إلى حدود لا يبلغها الكثيرون ، وأشد ما تبدو براعة فارير فى وصف حياة الموانى الكبيرة ، وما يقع فى منتدياتها وبؤرها السرية من أنواع الخلاعة والتهتك وصنوف الانحلال الأخلاقى والاجتماعى ، فهو يصف لنا مقاهى الأفيون والحشيش فى ثغور الشرق ، وحياة البؤر والمواخير السرية فى أمريكا وفى الهند الغربية ، ويصف لنا عادات رجال البحر فى السفينة وفى الميناء عند الجد وعند الهزل ، ويصف

حياة البغايا فى الموانى ، ومجتمع السفلة والأوغاد ؛ وكل ما يتعلق بهذه الحياة المثيرة التى لا يدرك أغوارها إلا رجل مثل فاربر طاف العالم وثغوره ، ونفذ إلى أعماق هذه الحياة بصورة عملية

وقد انقطع فارير إلى الأدب منذ أعوام طويلة ؛ وهو اليوم يعمل فى الصحافة إلى جانب كتابة القصص ، وينشر فى الصحف الفرنسية ، ولاسيما جريدة « الجورنال » مقالات طريفة ساحرة فى مختلف الموضوعات والصور

ومما يذكر فى حياة فارير الفياضة بالسياحة والمخاطر ، أنه كان إلى جانب مسيو دومير رئيس الجمهورية الفرنسية السابق حينما اغتاله القاتل جورجولوف برصاصة ، وحاول فارير انقاذه ، فأصابته فى ذراعه رصاصة من القاتل ألزمته فراشه مدى حين

صاحب الجائزة فى المسابقة الأدبية

صديقى العزيز صاحب الرسالة

تحية وسلاماً . أما بعد . فقد زعم علماء النفس — والنفس أمّارة بالسوء — أن من ارتكب جُرماً مرة نازعته غريزته إلى ارتكابه مرة أخرى . ومهما حاول الشقى أن يتوب ويرجع ، فان جوارحه تتحرك ، وأعضاءه تتدافع نحو تلك الجريمة ، رغم كل مقاومة

والجريمة التى نحن فى حديثها الآن هى ترجمة الشعر بالشعر . جريمة قديمة أثيمة . ولها فى صفحات الأجرام الأدبى أصول عريقة عميقة . والذين ارتكبوها وأمعنوا فى ارتكابها ، كان نصيبهم عادة الاعدام الأدبى مدى الحياة

ولقد كنت تبت من تلك الجريمة — أو خُيِّل إلى أنى تبت — حتى قرأت — وأنا أقضى عيد الفطر تحت شمس أسوان المشرقة — تلك القصيدة البديعة التى نظمتها كاتبتنا البارعة الآنسة مى ، فنازعتنى النفس اللجوج ، إلى أن أكسر التوبة ؛ وتقوضت صروح المقاومة أمام ذلك الشعر المغرى والمعانى الساحرة . وسهلت الشاعرة أمامنا الصعاب بترجمة نثرية قربت البعيد ، ومهدت العسير ، فما شككت فى أن كل أديب فى الأقطار العربية سيندفع بالرغم منه إلى ترجمة تلك القصيدة

أما أنى لم أرسل مع الترجمة اسماً ، بل وحاولت إخفاء خطى ، فهل ينتظر من مرتكب الجريمة الاعتراف الصريح ، وهل يستغرب منه أن يخفى معالمها جهد طاقته ؟

والآن وقد نجحت المجازفة ، فلا بأس عليك من إرسال الجائزة . فان دراهم الأدباء حلال للأدباء . ولا أشك فى أن أصدقائى الأدباء سيلحون فى أن تنفق تلك الدراهم ، فى وليمة أدبية تعد لهم . وهم يزعمون أن خير الطعام ما جاء من طريق مسابقة أدبية . ولقد أحاول إفهام هؤلاء أن الأفضل أن يشترى بالدراهم سفر قيم يكتب فى أوله حديث الجائزة ، من أجل الذكرى والتاريخ . وما أظنهم ممن يجدى فيهم الاقناع . وإليك التحية الخالصة من أخيك

محمد عوض محمد

الجيزه فى ٣ ابريل سنة ١٩٣٥

بجماليون المثال

الأديب الفاضل زكى شنوده جندى : — شبرا

قرأت ملاحظاتك الطيبة على أسطورة بجماليون المثـــال (الرسالة — العدد ٩٠) . والحقيقة أيها الأخ أن هذه الأساطير قد تناولتها يد التبديل والتحوير طيلة العصور السحيقة التى مرت بها . وأكبر ظنى أن الأغريق لم يكن لهم من أسطورة بجماليون المثال إلا ما لخصته أنا ؛ لأنى أعتمد فيما أكتب على أوثق المصادر التى لا يمكن أن يعتورها الشك ، أما بقية الأسطورة التى أشرت أنت إليها فهى ، كما أذكر ، من ابتكار الكاتب القصصى الفذ ج . برنردشو فى قصته الخالدة (بجماليون) ، وقد استمد الأديب الايرلندى الكبير مادة قصته من الأسطورة اليونانية ، وزاد عليها هذه الزيادة التى لاحظتها ، لأنها بذلك ، فى نظره ، تكتمل ما أحببته أنت لها من الرونق والكمال ؛ وأحسبك فى غنى عن أن أذكر لك ، أن هـذه الأساطير الجميلة كانت أبدا ، ولاتزال ، مصدر الالهام للشعراء فى الغرب الحديث ، وهذا چون كيتس فى قصيدته أنديميون ، قد بدل فى الأسطورة الأغريقية وحور ، ومع ذاك زادها جمالاً وكمالاً ؛ وكذلك فعل شلى فى (أدونيس) التى بكى فيها كيتس

ومع ذاك ، فأنا و(الرسالة) ، إذا منحتنى هذا الحق ، نشكرك

د . خ

الاحتفال الألفى بذكرى المتنبى

علمنا أن لجنة تألفت فى دمشق لوضع برنامج شامل للاحتفال الألفى بذكرى وفاة أبى الطيب المتنبى ، وستدعو إلى الاشتراك فى هذا الاحتفال جميع البلدان العربية . ويقال إن سلسلة هذه الاحتفالات ستبدأ فى رمضان القادم

مصير اياصوفيا

لن يجد الذين يزورون استانبول من المسلمين فى « اياصوفيا » مسجداً تؤدى فيه الصلاة كما كان حتى العام الماضى . ولكن « أيا صوفيا » أنبل الآثار الرومانية فى « قسطنطينية » قد حول الآن إلى متحف قومى تنفيذاً للقرار الذى اتخذته حكومة الجمهورية فى هذا الشأن ، يزوره الجمهور مقابل أحد عشر قرشاً تركياً (نحو قرش صاغ) وقد رفع من ساحاته الأثاث والرياش وكراسى المصاحف ، وأرسلت طنافسه الى مساجد أخرى فى أدرنة . وظهرت فى ساحته المنطقة القديمة التى كان يؤمها عباد الصور فى القرن الثامن الميلادى ؛ ولكن ترك المحراب ومنبر المؤذن والمصابيح البرنزية الكبرى (القناديل) وسلاسلها البيزنطية ؛ وترك أيضاً المنبر السلطانى الذى أقامه السلطان أحمد الثالث ، واللوحتان اللتان كتبهما الخطاط التركى الشهير تفنج زاده ابراهيم فى سنة ١٦٤٢

وستنقل التحف الرومانية والبيزنطية الى « اياصوفيا » عما قريب ؛ وبذلك ترفع عن المسجد صفته الدينية التى أسبغت عليه منذ فتح قسطنطينية سنة ١٤٥٣ م

جائزة مينيرفا

من أنباء باريس أن جائزة مينيرفا الشهيرة قد منحت إلى مدام كلير سانت سولين ؛ من أجل روايتها المسماة « نهار » Journée وقد فازت بها دون عدة من الكتاب المنافسين . ومدام سانت سولين روائية فرنسية شابة ، تلقت تربية عالية وتخرجت فى جامعة باريس ، وهى تكتب منذ أعوام كتابة الهواة لا المحترفين ولم تنشر سوى قليل مما كتبت ، ويقال إنها أحرقت من تآليفها عدة قصص لم ترها جديرة بالنشر ، وهى من عشاق القرية والغابة والمناظر الريفية ، وقد لفت فوزها بهذه الجائزة الأدبية الشهيرة الأنظار اليها ، وبدأت الصحف والمجلات تتناول حياتها وجهودها الأدبية بالنقد والتعليق

الكتب

ترجمة نفسية تحليلية

٤ ـ هو ذا تاريخ انسان ... !

للأستاذ خليل هنداوى

الحياة عاقلة تسعى إلى غايتها الأزلية وهى تلهم ما تريد ومن تريد لتحقيق غايتها المحجوبة عنا. أصغر ذرة فى الكون وأكبر جزء من أجزاء الكون سيان فى خدمة هذه الغاية... وكل ما فى الكون دائب عامل على تحقيقها، وهل الحياة إلا دوائر بعضها يموج فى قلب بعض، لا تنفتح دائرة عبثاً ولا يولد شئ عبثاً، وفى كل ذلك سر، جهلنا به لا ينفى وجوده! وهذا الاتصال يؤمن به « نعيمه » حتى لا يجد حدوداً بين البداية والنهاية. لأن بداية كل شئ مرتبطة بنتيجته. والواقف على متفجر الينبوع يرى فيه المسيل والبحر، والطريق والمحجة، لأن بدايته مرتبطة بنهايته، لا تستطيع أن تقول: من ها هنا ابتدأ وهنالك انتهى! بل يبتدىء وينتهى، ويبتدىء وينتهى فى أصغر من لحظة، فهو ـ من بدايته ونهايته ـ فى نقطة لا يفرق فيها مفرق بين البدء والنهاية

وقد يصل « النعيمى » بين خيوط الحياة الحقيقية وخيوط الحياة الحالمة، فيحاول أن يجعل من الاحلام مؤثرات فى اليقظات! وكم حلم أراد تفسيره بالحقيقة، ومشابهة حللها بمشابهة أخرى! كأن الحياة عنده واعية تخلق ما تهوى وتخلق الانسان كما تهوى ولا يخلق هو من نفسه شيئاً، وهذه الوقائع التى تراكم فى حياة الانسان وندعوها نحن « مصادفات » يراها هو « حقائق » كبرى مرسومة فى كتاب الحيـاة، وإنما دعانا عجزها الى تسميتها بالمصادفات. وما فيها من معنى المصادفة شيء!

فلسفة هادئة عميقة لم تنبت جذورها إلا فى الشرق؛ الشرق البعيد، الذى وجد معنى الألوهية فى كل ذرة من ذرات الوجود، هذه الفلسفة لم يمنها فيه الغرب الذى سكنه طويلاً، وإنما حاول الغرب أن يخنقها فيه، فهب بصيحة المخنوق فيه، فأنقذه قبل إسلام الروح

فلسفة شرقيـة هادئة لا تحارب العالم لأنها هى العالم، ولا تثور على القوة المجهولة بل تدور معها كما تدور الأفلاك والنجوم، ولكل جرم دورته وسبيله. والعوالم كلها تؤلف عالماً واحداً كاملاً. كلنا دورات فى دورات، وكلنا ضمن دائرة الحياة الكبرى. وهى تكره التمرد على الحياة، لأنها لا تدرك معنى هذه الثورة، والتمرد — عندها — نزق شباب وثورة محموم، ورغوة تلهيك عن

الصريح ، وخير من هذا التمرد على الناس وحياتهم التوجه إلى تفهم أسرار تلك الحياة بصمت وهـدوء ، وكشف ما فيها من جمال ينضح من معين الجمال الكلى . وهو يأخذ على جبران تمرده الذى يضعه فوق « أبناء الحياة » ويريد منه فنـه أن يعليه فوق الناس . فيرى نفسه نسراً عظيما ، ويرى غـيره دجاجا وديداناً ،

لا يرضى غير الفضاء ميـداناً ، ولا يشرف على الحياة إلا من القمم العالية ، يأخذ نعيمة على جبران هذا الأدعاء ، ويجيبه بلسان « ميشلين » المتواضعة المتهكمة (وأنت ياجبران ! لا تأنف من أن تغذى جسمك ببيوض الدجاج ولحومها ! جعل « ميشلين » رفيقة تحسن المشىَ فى مسالك الأرض قبل أن تجعلها شاعرة تجوب رحاب الجو . اجعلها دجاجة سعيدة قبل أن تجعلها نسراً قوياً ، اجعلها إنساناً راضياً قبل أن تجعلها إلـهاً كاملاً)

فلسفة متواضعة غايتها أن تبشر بالحياة الشاملة التى تربط بين الأقاليم التى مزقها طمع النـاس ، قضوا على أسمى رابطة بينها ورضوا بأن يربطوا — ماقطعوه — بالمسخ الذى خلقوه وألهوه — وهو الفلس — وبهذه الفلسفة يجرب أن يؤلف بين البشر ويفنى الذات الفردية ، ويحل محلها الذات العامة التى لا شريعة إلا شريعتها ؛ فلا يبغض إنساناً لأنه كل الناس ، ولا يملك شيئاً لأن كل شىء له . ولا يهرب من الألم لأنه السبيل إلى النجاة ، ولا يدين مجرماً لأنه يدين نفسه ، ولا يطلب مجداً لأن كل مجد باطل

هذا هو عالم الوحدة الكاملة حيث الحياة ألفة ابدية ، كل ما فيها يعانق بعضه بعضاً عناق محبة لا حواجز فيها ولا حد لها ، يبلغه الانسان فيـدرك بلاغة الصمت وهيبة السكون ، وسمو النفس فى حضرة مالا يُحد . ومرتبة الصمت ـ عند نعيمة ـ هى أسمى مراتب البـلاغة ، ولـكن أى صمت ! هو الصمت المبطن بتلك المعرفة ، وقد يكون أن ذلك الصمت هو المحجة التى نسير اليها على غير علم منا

بلى : سيصمت الانسان ـ الصمت الأكبر ـ عند القبر ، وينفصل الانسان عن كل شىء ولـكنه الانفصال الظاهر ! لأن الانفصال لا حقيقة له ... (وأين هى القدرة التى فى وسعها أن تحل حلقة واحدة من سلسلة الزمان وتترك السلسلة مفككة مقطعة ؟ أليس الانسان يغيب فى ناحية من نواحى الزمان ليبرز فى غيرها ، كالشمس تغيب عنا فى بقعة من الأرض فتشرق فى سواها ؟ الاتصال ! الانصـــال ! ليس على الأرض ولا فى السماء قدرة تستطيع أن تفصم عروة مكنتها الحياة بين إنسان وإنسان ، أو بين شىء وشىء وهل فى الـكون ذرة ليست مربوطة بكل ما فى الـكون

سيذهب الجدول مترنماً الى البحر ، وسيعود دون أن ينقطع المسيل الذى يصل بينه وبين البحر . . . . ؟

خليل هنداوى